
اجاثا كريستي
الرسائل السوداء



أجاثا كريستي

{1976 - 1890}

-الكاتبة التي ترجمت رواياتها إلى **103** لغات.

- بيع من كتبها أكثر من **900** مليون نسخة باللغة الإنجليزية وحدها.

- كاتبة روايات بوليسية، ولدت في إنجلترا، تتميز عن جميع الروائيين البوليسيين، مما نصّبها ملكة عليهم جميعًا. تميّزت أيضًا بأنّ أشخاص رواياتها أشخاص عاديّون، ولكنّهم تعرضوا في الرواية لظروف أزالت القناع الحضاري عن الوحوش القابعة في أعماق كل إنسان. كذلك لم تلجأ الكاتبة العظيمة إلى عنصر الجنس في رواياتها، على عكس ما اتبعه الآخرون. ولم تهدف إلى الإثارة، ولا تلجأ إليها. ورواياتها تضمّنت أيضًا أهدافًا إنسانية فحواها أنّ (الجريمة لا تفيد) وأنّ الخير هو المنتصر في النهاية.

الرسائل السوداء
Postern of Fate

قرأت «توبنس بيريسفورد» وزوجها «تومي» كثيرا من الكتب والرسائل القديمة والروايات في أثناء قيامهما بالأبحاث التي صارت شغلهما الشاغل. وجدت «توبنس» حروفًا متفرقة استطاعت أن تكوّن منها جملتين هما مفتاح اللغز في وفاة «ماري جوردان». تقول الجملتان: «إن «ماري جوردان» لم تكن وفاتها طبيعية - إنه واحد منا، أعتقد أنني أعرف من هو». إذن من كتب هذا الكلام وتحمّل مسؤولية ما كتب؟ هل هو «ألكسندر باركنسون» ذلك الصبي الذي قُتل؟! وهل قُتل لأنه كان يعرف سرًّا يفضح مهمة «ماري» الجاسوسة الألمانية ودورها مع ضابط البحرية التي كانت تبادله المعلومات؟ أو كان يعرف من قتلها؟ واصلت «توبنس» أبحاثها معرضة نفسها وزوجها للخطر.

تكملة هذه الرواية - عزيزي القارئ - تجدها في رواية «نسيج العنكبوت» رقم (82).

ثمن الكتاب

البلد	الثمن
لبنان	5000 ل.ل.
سوريا	100 ل.س.
الأردن	2 دينار
السعودية	10 ريالات
الكويت	1 دينار
الإمارات	10 دراهم
البحرين	1.5 دينار
قطر	10 ريالات
عُمان	1.5 ريال
مصر	10 جنيهات
المغرب	30 درهما
ليبيا	5 دنانير
تونس	4 دنانير
اليمن	400 ريال


ISBN 995338254-9
9789953382548

الرسائل السوداء

بونارد الأسطه

يقدّم

الرواية المعرّبة

الرسائل السوداء

(79)

تاليف الكاتبة والأديبة العالمية

أجاثا كريستي

تعريب الأديب

عمر عبد العزيز أمين

الناشر

دار ميوزيك للصحافة والطباعة والنشر والتوزيع ش. م. م

الإدارة العامة والتوزيع

تليفون 666 212 9 961 00 فاكس 665 212 9 961 00

ص.ب 374 جونيه – لبنان

www.inter-press.org Email:info@inter-press.org

وكلاء التوزيع

المركز الدولي – دار البشير

تاليف

Agatha Christie

الاسم الأصلي للكتاب

Postern Of Fate (1973)

الغلاف بريشة الفنان العالمي

عبد العال

الرسائل السوداء

شخصيات الرواية

– السيد "**تومي بيريسفورد**" وزوجته السيدة "**توبنس بيريسفورد**" : بطلا الرواية.

– "**إيزاك بودليكوت**" : بستاني.

– السيدة "**جريفين**" .

– الآنسة "**ملينز**" أو "**دودو**" .

– السيد "**روبنسون**" .

– العقيد "**بيكاويي**" .

– "**أنجوس كرسبين**" : ضابط أمن معروف باسم "**هورشام**" .

– الآنسة "**كولودون**" : باحثة محترفة.

الجزء الأول

- 1 -

فيما يختص بالكتب

قالت "**توبنس**" :

– كتب! لفظت هذه الكلمة بما يشبه انفجاراً منحرف المزاج. قال "**تومي**" :

– ماذا قلت؟ نظرت "**توبنس**" إليه من الجانب الآخر من الحجرة قائلة:

– قلت "كتبًا" . فقال "**تومي بيريسفورد**" :

– فهمت ما تعنين.

كانت أمام "**توبنس**" ثلاثة صناديق كبيرة الحجم، كانت قد أخذت منها كتبًا مختلفة ولم يزل الجزء الأكبر منها مملوءاً بالكتب. قالت "**توبنس**" :

– أمر لا يصدق.

– تعنين المساحة التي تشغلها الكتب؟

– نعم.

– هل تحاولين وضعها جميعها فوق الأرفف؟ فقالت "**توبنس**" :

– لا أدري ماذا أحاول أن أفعله. هذا أغرب ما في الموضوع. لا يعرف المرء أبداً ما يريد أن يفعله تحديداً. . ثم تنهدت قائلة:

– يا إلهي! فقال زوجها:

– حقيقة. ما كنت أعتقد قط أن هذا من خصالك. كانت المشكلة بالنسبة إليك دائمًا أنك تعلمين جيداً ما تريدين أن تفعليه. فقالت "**توبنس**" :

– ما أعنيه هو أننا نكبر في السن وأننا.. حسنًا، ينبغي أن نواجه الواقع.. نشعر بآلام روماتيزمية إلى حد ما وبخاصة عندما نتمطى، كما تعلم نتمطى لوضع الكتب فوق الأرفف أو لإنزال أشياء من فوق الأرفف أو نجثو للبحث عن شيء ما في الأرفف السفلى ثم نواجه صعوبة في النهوض مرة أخرى. قال "**تومي**" :

– نعم. نعم. هذا تقرير عن عدم قدراتنا المشتركة. هل هذا ما بدأت قوله؟

– لا. ليس هذا ما بدأت قوله. ما بدأت قوله هو إنه جميل أننا قد أمكننا شراء بيت جديد والاهتداء إلى المكان الذي أردنا أن نذهب إليه ونعيش فيه تحديداً، وإلى المنزل الذي حلمنا دائمًا باقتنائه – بعد إجراء قدر طفيف من التغيير بالتأكيد. فقال "**تومي**" :

– ضم حجرة أو اثنتين إلى بعضهما البعض مع إضافة – إليها – ما تسمينه شرفة ويسميه بنّاؤك تيراس وأفضل أنا تسميته فيراندا. فقالت "**توبنس**" بحزم:

– وستكون جميلة جدًّا. فقال "**تومي**" :

– وعندما تنتهين من عمل ذلك لن أكون على علم به! هل هذا ما تعنينه؟

– أبداً. كل ما قلته إنك عندما تراه بعد أن يكتمل سوف تسرّ وتقول كم أنت زوجة عبقرية وذكية وفنانة. فقال "**تومي**" :

– حسنًا. سوف أتذكر ما ينبغي أن أقوله عندئذ. فقالت "**توبنس**" :

– لست محتاجًا إلى أن تتذكر؛ لأنك ستنطق به تلقائيًّا. قال "**تومي**" :

– وما شأن هذا بالكتب؟

– حسنا. لقد أحضرنا معنا صندوقين أو ثلاثة صناديق كتب. أعني أننا تخلصنا بالبيع من الكتب التي لم تعن لنا كثيراً وأحضرنا تلك التي لا نحتمل الاستغناء عنها، ثم ما تقول عنه "تلك" لا أتذكر أسماءها الآن، ولكن من باعونا هذا المنزل لم يرغبوا في أن يأخذوا الكثير من متعلقاتهم معهم وقالوا إذا رغبنا في أن نقدم لهم عرضًا فإنهم على استعداد لأن يتركوا بعضها بما فيها الكتب، وأتينا وألقينا نظرة.. فقال "**تومي**" :

– وقدمنا بعض العروض.

– نعم. لكن ليس بالقدر الذي كانوا يأملون أن نقدمه، على ما أتوقع. فبعض قطع أثاثهم وزيناتهم كانت مرعبة. حسنا. من دواعي حسن الحظ أننا لم نكن مضطرين إلى شرائها، لكن عندما حضرت ورأيت مختلف نوعيات

الكتب.. وكان من بينها كتب للأطفال، بعضها كان بحجرة الجلوس.. وكان هناك بعض الكتب القديمة المحببة إلى النفس، أعني لا تزال موجودة، وهناك أيضا بعض الكتب التي أعتز بها بصفة خاصة؛ لهذا رأيت أنها فرصة جيدة لأن أحتفظ بها. منها قصة "**أندروكليس والأسد**" للمؤلف "**أندرو لانج**" أتذكر أنني قرأتها وأنا في الثامنة من العمر.

– أخبريني يا "**توبنس**". هل كنت مجدة بما يكفي لأن تقرئي وأنت في الثامنة؟ فقالت "**توبنس**":

– نعم. قرأت وأنا في الخامسة. كان الجميع يستطيعون القراءة عندما كنت صغيرة. لم أعلم حتى أن أحداً كان يحتاج إلى أن يتعلم. أعني أن أحدهم كان يقرأ القصص بصوت عالٍ وكنت تعجب بها جداً وتتذكر الموضع الذي أعيد إليه الكتاب فوق الرف وكان يسمح لك دائماً بأخذه وإلقاء نظرة إليه بنفسك وبذلك تجد أنك كنت تقرأ أيضاً دون أن تضطر إلى أن تتعلم التهجية أو أي شيء كهذا. ولم يكن الوضع جيدا جداً فيما بعد؛ لأنني لم أكن قادرة قط على التهجية الصحيحة. ولو أن أحداً قد علمني كيفية التهجية عندما كنت في حوالي الرابعة من عمري لأمكنني القول إن الوضع سيكون جيداً جداً بحق. علمني والدي كيف أقوم بعمليات الجمع والطرح والضرب بالتأكيد؛ لأنه كان يقول إن جدول الضرب هو أفضل ما يمكن للمرء أن يتعلمه في الحياة، وتعلمت القسمة المطوّلة أيضاً.

– كم كان رجلاً ماهراً! فقالت "**توبنس**":

– لا أعتقد أنه كان ماهراً بصفة خاصة ولكنه كان ظريفاً. ظريفاً جداً فقط.

– ألم نحد عن موضوعنا؟ فقالت "**توبنس**":

– نعم. هذا صحيح. حسنا. كما قلت، عندما فكرت في قراءة "**أندروكليس والأسد**" مرة أخرى كانت هذه القصة ضمن كتاب قصص عن الحيوانات، على حد اعتقادي، بقلم "**أندرو لانج**". آه. كم أحببت هذا الكتاب. وكانت هناك قصة عن "**يوم من حياتي في إيتون**" بقلم أحد تلاميذ

مدرسة "**إيتون**" . لا أذكر لماذا أردت أن أقرأه ولكنني قرأته . وكان أحد كتبي المفضلة . وكانت هناك بعض القصص من الأدب الكلاسيكي وكانت هناك مؤلفات السيدة "**مولزورث**" : "**ساعة الوقواق**" و"**مزرعة الرياح الأربع**" . . . قال "**تومي**" :

– حسنا . لا بأس . لا حاجة بك إلى أن تقدمي لي تقريراً وافيًا عن بطولاتك الأدبية في شبابك المبكر . فقالت "**توبنس**" :

– ما أعنيه هو أنه لا يمكنك الحصول عليها حاليًّا . أعني أنك تحصل على طبعات معادة منها ولكنها عادة ما تكون قد تغيرت واشتملت على صور مختلفة . حقيقة ، لم يمكنني منذ أيام أن أميز كتاب "**أليس في بلد العجائب**" عندما رأيته . بدا كل شيء فيه غريبًا . هناك الكتب التي لا يزال بإمكاني الحصول عليها : مؤلفات السيدة "**مولزورث**" ، بعض الكتب الخيالية القديمة . . . "**وردي وأزرق وأصفر**" . . . ثم ، بالتأكيد ، العديد من الكتب اللاحقة التي استمتعت بها . والعديد من مؤلفات "**ستانلي ويمانز**" وما إلى ذلك . هناك عدد كبير منها ضمن ما تركوه . قال "**تومي**" :

– حسنًا . لقد تعرضت إلى إغراء . شعرت بأنها صفقة جيدة : "**a good buy**" .

– نعم على الأقل . ماذا تعني بـ "**a good buy**" ؟ فقال "**تومي**" :

– أعني **buy** . . صفقة .

– آه . ظننت أنك ستغادر الحجرة وأنك تقول لي "**good buy**" مودعًا . فقال "**تومي**" :

– كلا ألبتة . كنت عميق الاهتمام وكانت صفقة جيدة على أية حال .

– وقد حصلت عليها بسعر منخفض جدًّا كما أقول لك . و . . وها هي كلها بين كتبنا وغيرها من الكتب . كل ما في الأمر أنه قد أصبح لدينا كم هائلٍ من الكتب الآن والأرفف التي سبق أن قمنا بإعدادها لن تكون كافية تقريبًا . وماذا عن مكتبك الخصوصي؟ هل به متسع لعدد آخر من الكتب؟ فقال "**تومي**" :

– لا. ليس به. بل لن يكون به متسع كافٍ لكتبي الخاصة. فقالت "**توبنس**":

– يا إلهي يا إلهي! هذا هو حالنا دائمًا. هل تظن أننا قد نضطر إلى بناء حجرة إضافية؟ فقال "**تومي**":

– لا. سوف نقتصد. هذا ما اتفقنا عليه أول أمس. ألا تذكرين؟ فقالت "**توبنس**":

– كان هذا أول أمس. الزمن يتغير. ما سوف أقوم به الآن هو أن أضع فوق هذه الأرفف جميع الكتب التي لا أستطيع فراقها بحق. ثم بعد ذلك يمكننا النظر في أمر الكتب الأخرى و.. حسنا من الممكن أن يكون هناك مستشفى للأطفال في مكان ما، كما قد تكون هناك أماكن أخرى ترحب باقتناء كتب. فقال "**تومي**":

– أو يمكننا أن نبيعها.

– لا أفترض أنها من نوعية الكتب التي يرغبٍ الناس جدًّا في شرائها. لا أعتقد أن من بينها كتبًا نادرة القيمة أو شيئًا من هذا القبيل. فقال "**تومي**":

– لا تعرفين ما يخفيه لك الحظ أبدًا. لنأمل أن يكون من بينها كتب نفدت نسخها عند الناشر وتدارك احتياج أحد باعة الكتب الشديد إليها. قالت "**توبنس**":

– في هذه الأثناء ينبغي أن نضعها فوق الأرفف وأن نلقي نظرة إلى داخلها في كل مرة لنرى ما إذا كان هناك كتاب أحتاج إليه بحق ويمكنني أن أتذكره بوضوح. أحاول إلقاء نظرة عابرة إليها.. حسنا، تعلم ما أعنيه، أجري عملية تصنيف سريعة لها. أعني قصص المغامرات والقصص الخيالية وقصص الأطفال وتلك القصص عن المدارس التي كان تلاميذها دائمًا من الأثرياء.. مؤلفات "**ل. ت. ميد**" طبقًا لذاكرتي. وبعض الكتب التي كنا نقرؤها لـ"**دبورا**" عندما كانت صغيرة أيضًا. كم كنا نحب "**ويني المقزز**". وكانت هناك أيضًا قصة "**الدجاجة الرمادية الصغيرة**" لكنني لم أكن أحبها جدًّا. فقال "**تومي**":

– أرى أنك ترهقين نفسك. أعتقد أنني كنت أترك ما تقومين به الآن. فقالت "**توبنس**" :

– حسنًا. ربما أفعل هذا. ولكنني أظن أنه لو يمكنني الانتهاء من هذا الجانب من الحجرة، بأن أكتفي بنقل الكتب إلى هنا... فقال "**تومي**" :

– حسنًا سوف أساعدك. أقبل إليها وأمال الصندوق بدرجة كبيرة بحيث سقطت الكتب خارجه، وجمع ملء ذراعيه منها واتجه إلى الأرفف حيث وضعها فوقها. قال:

– أضع ذات الحجم الواحد معًا. تبدو أكثر ترتيبًا. فقالت "**توبنس**" :

– لا أسمِّي هذا فرزًا.

– إنه فرز كافٍ لمواصلة العمل. يمكننا إجراء المزيد من ذلك فيما بعد ونجعل كل شيء يبدو على ما يرام. سوف نقوم بعملية الفرز والتصنيف ذات يوم ممطر لا يمكننا التفكير فيه في أي شيء آخر نفعله.

– تكمن المشكلة في أننا يمكننا دائمًا التفكير في شيء آخر نفعله.

– حسنًا الآن. هناك سبعة أخرى هناك. ثم لا يوجد سوى هذا الركن الأعلى. أحضري لي ذلك المقعد الخشبي الذي هناك. هلا فعلت ذلك؟ هل قوائمه قوية بما يكفي لأن أقف فوقه؟ عندئذ يمكنني أن أضع بعضًا فوق الرف الأعلى.

رفع نفسه إلى ما فوق المقعد بقدر من الحذر وناولته "**توبنس**" ملء ذراع من الكتب أدخله بقدر من الحرص فوق الرف الأعلى. ولم يقع المكروه إلا للثلاثة الأخيرة التي هوت إلى الأرض مخطئة "**توبنس**" بشق النفس. قالت "**توبنس**" :

– هذا مؤلم.

– حسنًا.. لم يمكنني اجتنابه. ناولتني عددًا كبيرًا دفعة واحدة. قالت "**توبنس**" وقد تراجعت إلى الخلف قليلاً:

– حسنًا. يبدو هذا مدهشًا بالتأكيد. والآن لو أمكنك وضع هذه الكتب

فوق الرف الثاني من أسفل، هناك فراغ يتسع لها، فهذا ينهي ما بداخل هذا الصندوق. وهذا أمر جيد أيضًا. هذه الكتب التي أتصفحها هذا الصباح ليست كتبنا نحن، بل الكتب التي اشتريناها ربما نجد بها كنوزاً. فقال "**تومي**" :

– ربما.

– أعتقد أننا سوف نجد كنوزاً. أعتقد بحق أنني سوف أجد شيئًا ما. شيئًا يساوي مالاً كثيراً، ربما.

– وماذا عسانا أن نفعل عندئذ؟ نبيعه؟ فقالت "**توبنس**" :

– أعتقد أنه سوف يكون علينا أن نبيعه، نعم. يمكننا بالتأكيد الاكتفاء بالاحتفاظ به وإطلاع الآخرين عليه. ليس من قبيل التباهي بالضبط بل الاكتفاء بقول: "نعم. لقد عثرنا على لقيّة أو اثنتين مثيرتين للاهتمام. وأرى أننا سوف نهتدي إلى شيء نفيس أيضًا".

– وما هذا.. أحد الكتب القديمة المفضلة التي نسيتها؟

– ليس ذلك تحديداً. كنت أعني شيئًا مذهلاً مدهشًا. شيئًا يحدث بحياتنا تغييراً كبيراً. فقال "**تومي**" :

– آه يا "**توبنس**". كم ذهنك مدهش. الاحتمال الأكبر أن نعثر على شيء كارثي بكل المقاييس. قالت "**توبنس**" :

– هراء! ينبغي أن يكون لدى المرء أمل. فهو الشيء العظيم الذي ينبغي أن يكون لك في الحياة. الأمل. ألا تذكر؟ أنا مليئة بالأمل دائمًا. فقال "**تومي**" متنهداً:

– أعلم عنك ذلك. وكثيراً ما ندمت أنا عليه.

*****

- 2 -

السهم الأسود

أعادت السيدة "**تومي بيريسفورد**" "**ساعة الوقواق**" إلى جانب مؤلفات السيدة "**مولزورث**" حيث اختارت لها فراغًا بالرف الثالث من أسفل. كانت مؤلفات السيدة "**مولزورث**" مجتمعة بذلك الموقع معًا. أخرجت "**توبنس**" من بينها "**حجرة الزخارف**" وأمسكت به بأصابعها متأملة. أم تقرأ "**مزرعة الرياح الأربع**" لا يمكنها أن تتذكر "**مزرعة الرياح الأربع**" بالقدر الذي تتذكر به "**ساعة الوقواق**" و"**حجرة الزخارف**". تجولت أصابعها... سيعود "**تومي**" حالاً.

كانت تتقدم في الإنجاز. نعم، من المؤكد أنها كانت تتقدم. لو أنها فقط لم تتوقف وتخرج بعضًا من كتبها المفضلة القديمة وتقرأها. أمر سائغ ولكنه استغرق وقتًا طويلاً. وعندما سألها "**تومي**" في المساء عند عودته إلى البيت عن أحوال سير الأمور وقالت: "جيدة جدًا الآن" كان عليها أن تلجأ إلى قدر كبير من الذكاء والدهاء كي تحول دون توجهه إلى الطابق الأعلى ليلقي نظرة فاحصة إلى مدى تقدم العمل بترتيب أرفف الكتب. استغرق كل هذا وقتًا طويلاً. دائمًا ما يتطلب الانتقال إلى منزل جديد وقتًا طويلا.. أطول بكثير من تقديرات المرء. واحتمال عدد كبير من المزعجين. عمال الكهرباء – على سبيل المثال – الذين قدموا وبدا عليهم عدم الرضا بما كانوا قد قاموا به في المرة الأخيرة التي حضروا فيها ورفعوا فيها مزيداً من المساحات الكبيرة من الأرضية وبوجوه مشرقة خلفوا مزيداً من الحفر التي تكاد تنزلق فيها قدم ربة البيت الغافلة ويخف إلى إنقاذها في اللحظة الحرجة الكهربائي القابع أسفل الأرضية. قالت "**توبنس**":

– أتمنى أحيانًا لو أننا لم نترك "**بارتونز إيكر**". وكان "**تومي**" قد قال لها:

– هل تذكرين سقف حجرة الطعام وتذكرين تلك العُليّات وتذكرين ما حدث للمرأب.. كاد يحطم السيارة. تعلمين ذلك. وقالت "**توبنس**":

– أعتقد أنه كان بإمكاننا إصلاحه. وقال "**تومي**":

– لا. كنا سنضطر إلى استبدال البناء المحطم بالكامل تقريبا أو إلى الانتقال منه إلى غيره. سيصبح هذا منزلاً جميلاً جداً في يوم من الأيام. أنا واثق بذلك تماماً. وسيكون به متسع لجميع الأشياء التي نريد أن نفعلها. كانت "**توبنس**" قد قالت:

– عندما تتحدث عن الأشياء التي نريد أن نفعلها فإنك تعني الأشياء التي نريد أن نجد لها أماكن ونحتفظ بها. فقال "**تومي**":

– أعلم أننا نحتفظ بالكثير جداً. أنا لا أتفق معك تماماً.

في تلك اللحظة لاح بذهن "**توبنس**" شيء ما – ما إذا كانا سيفعلان أي شيء بهذا المنزل. أي ما يزيد على الانتقال إليه. كان الأمر قد بدا بسيطاً ولكنه تعقد، والسبب راجع جزئياً إلى كل هذا العدد من الكتب بالتأكيد. قالت "**توبنس**":

– لو كنت فتاة عادية ظريفة من بنات هذه الأيام ما كنت قد تعلمت القراءة بسهولة عندما كنت صغيرة. لا يبدو أطفال هذه الأيام البالغين من العمر أربع أو خمس أو ست سنوات قادرين على القراءة وكثيرون منهم لا يبدون قادرين على أن يقرؤوا عندما يبلغون العاشرة أو الحادية عشرة. لا يمكنني أن أعرف السبب في أن القراءة كانت سهلة إلى هذا الحد لنا جميعاً. كنا جميعاً قادرين على القراءة أنا و"**مارتين**" جاري و"**جينيفر**" بنهاية الطريق و"**سيريل**" و"**وينيفريد**". جميعنا. لا أعني أنه كان باستطاعتنا جميعاً أن نتهجى بدرجة جيدة جداً ولكننا كنا نستطيع قراءة أي شيء نريد قراءته. لا أعلم كيف تعلمنا. بسؤال الآخرين – ربما. أشياء عن الملصقات وحبوب "**كارتر**" الصغيرة لعلاج الكبد. اعتدنا أن نقرأ كل شيء عنها في الحقول عندما كانت

القطارات تقترب من "**لندن**" . كان الأمر مثيراً جداً. دائماً ما كنت أتساءل عما كانته. يا إلهي! ينبغي أن أفكر فيما أفعله.

أخرجت بعضاً آخر من الكتب. انقضى ثلاثة أرباع الساعة وهي مستغرقة في قراءة "**أليس من خلال المرآة**" أولاً ثم رواية "**شارلوت يونج**" بعنوان "**غير معلوم للتاريخ**" . طالت قبضة يدها كتاب "**سلسلة زهرة الربيع**" السميك الرث. قالت "**توبنس**" :

– ينبغي أن أقرأ هذا ثانية. لقد مرت سنوات وسنوات منذ أن قرأته. يا إلهي! كم كان مثيراً ومدهشا بغض النظر عما إذا كان سيسمح لـ"**نورمان**" بأن يصبح مدمناً أم لا. و"**إيثيل**" و .. ماذا كان اسم المكان؟ "**كوكسويل**" أو شيء كهذا .. و"**فلورا**" التي كانت دنيوية. أتساءل لماذا كان الجميع دنيوياً في تلك الأيام، وكم كان الرأي متدنياً في كون الإنسان دنيوياً. أتساءل ماذا نحن الآن. هل تظن أننا جميعاً دنيويون أم لا؟

– معذرة يا سيدتي؟ فقالت "**توبنس**" وهي تنظر إلى تابعها الأمين "**ألبرت**" الذي كان قد ظهر بمدخل الباب حالاً :

– آه. لا شيء.

– ظننت أنك ناديت تطلبين شيئاً ما. وقد دقت الناقوس. أليس كذلك؟ فقالت "**توبنس**" :

– لا في الواقع. استندت إليه فقط وأنا أرفع نفسي على المقعد كي أستخرج كتاباً.

– هل هناك أي شيء يمكنني أن أنزله لك؟ فقالت "**توبنس**" :

– حسناً. ليتك تفعل هذا. إني أسقط من فوق هذه المقاعد. بعض قوائمها غير ثابتة جداً وبعضها زلق.

– أي كتاب بالتحديد؟

– حسناً. لم أقطع شوطاً طويلاً مع الرف الثالث العلوي. أسفل الرف

الأعلى برفين. لا علم لي بالكتب التي عليه.

وقف "**ألبرت**" فوق أحد المقاعد وضرب بيده كل كتاب بدوره لينفض عنه كم الغبار الذي تجمع عليه وناولها هذه الكتب. تلقتها "**توبنس**" بابتهاج شديد.

- يا للعجب! كل هذه، لقد نسيت كثيراً منها. آه هذه "**التميمة**" وهذه "**مجموعة المزامير**" و"**الباحثون الجدد عن الكنز**". كم أحب كل هذه. لا... لا تضعها فوق الرف الآن يا "**ألبرت**". أعتقد أنني سوف أقرؤها أولاً. أعني كتاباً واحداً أو اثنين منها أولاً. والآن. ما هذا الكتاب؟ دعني أرى. "**العقدة الحمراء**". آه نعم. كان هذا أحد الكتب التاريخية. كان مثيراً للغاية. وهناك أيضاً "**تحت الرداء الأحمر**". الكثير من مؤلفات "**ستانلي ويمان**". الكثير والكثير. اعتدت قراءة هذه وأنا في حوالي العاشرة أو الحادية عشرة. لن أدهش إذا لم ألتقِ بـ"**سجين زندا**". تنهدت بسعادة بالغة وهي تستعيد الذكريات. ثم استطردت قائلة:

- "**سجين زندا**". أول تعريف لي بالرواية العاطفية. علاقة الأميرة "**فلافيا**" العاطفية. وملك "**روريتانيا**". و"**رودلف راسنديل**".. اسم كهذا حلمت به ليلاً. ناولها "**ألبرت**" نخبة أخرى. قالت "**توبنس**":

- آه نعم. هذه أفضل حقًّا. وهي أسبق أيضًا. يجب أن أضع الكتب السابقة معًا. والآن دعني أرى. ماذا لدينا هنا؟ "**جزيرة الكنز**". حسنًا. قصة ظريفة ولكنني قرأت "**جزيرة الكنز**" ثانية وقد رأيت، على ما أعتقد، فيلمين عنها. لا أحب رؤيتها أفلامًا لأنها لا تبدو مطابقة أبداً. آه .. وهنا "**اختطاف**". نعم. دائمًا ما أحببت هذه الرواية.

مدّ "**ألبرت**" جسده إلى فوق وبالغ في ملء ذراعه فهوت رواية "**كاتريونا**" بشكل أو بآخر فوق رأس "**توبنس**".

- آسف يا سيدتي. آسف جدًّا. فقالت "**توبنس**":

– لا بأس. لا أهمية. "**كاتريونا**" . نعم. هل هناك مزيد من مؤلفات "**ستيفنسون**"؟ ناولها "**ألبرت**" الكتب بقدر أكبر من الحذر. أطلقت "**توبنس**" صيحة سرور زائد.

– "**السهم الأسود**" . إنني أعلن! "**السهم الأسود**" . إنه أحد أول الكتب التي حصلت عليها وقرأتها. لا أعتقد أنك قد قرأته أبدًا يا "**ألبرت**" . أعني لم تكن قد ولدت بعد، أليس كذلك؟ والآن دعني أفكر. دعني أفكر. "**السهم الأسود**" . نعم بالتأكيد. كانت تلك الصورة التي على الجدار، ذات العينين – عينين حقيقيتين – تنظران من خلال عينيّ الصورة. كانت مدهشة. مخيفة جدًّا ... فقط. نعم. "**السهم الأسود**" . ماذا كانت؟ كانت تدور حول ... آه نعم، الهر والكلب؟ لا. الهر والفأر والكلب "**لوفيل**" . تحكم سائر "**إنجلترا**" تحت رئاسة الوغد. هذا ما كانته، والوغد هو "**ريتشارد الثالث**" بالتأكيد. على الرغم من أن الجميع يؤلفون كتبًا يقولون فيها إنه كان رائعًا جدًّا وليس وغدًا قط. ولكنني لا أصدق ذلك. ولم يصدقه "**شكسبير**" . فقد بدأ مسرحية – على الأقل – بجعل "**ريتشارد**" يقول: "إنني مصمم على أن أثبت أني وغد" . نعم "**السهم الأسود**" .

– تريدين مزيدًا يا سيدتي؟

– لا. شكرًا لك يا "**ألبرت**" . أعتقد أنني متعبة جدًّا بحيث لا يمكنني مواصلة العمل الآن.

– لا بأس.. وبالمناسبة اتصل السيد هاتفيًّا وقال إنه سوف يتأخر مدة نصف ساعة. قالت "**توبنس**" :

– لا بأس. جلست فوق المقعد وأخذت "**السهم الأسود**" وفتحت الصفحات واستغرقت في القراءة. قالت:

– يا إلهي. كم هذا مدهش! لقد نسيت الرواية بما يكفي لأن أستمتع بقراءتها من جديد. كانت مثيرة جدًّا.

خيم الصمت على المكان وعاد "**ألبرت**" إلى المطبخ. اتكأت "**توبنس**" إلى الخلف فوق المقعد. مر الوقت. رفعت السيدة "**تومي بيريسفورد**" ساقيها إلى ما فوق المقعد المجنح الرث باحثة عن متعة الماضي من خلال قراءة رائعة "**روبرت لويس ستيفنسون**" "**السهم الأسود**".

وفي المطبخ مر الوقت أيضًا. مارس "**ألبرت**" نشاطه المتنوع مع الموقد. وصلت سيارة وتوقفت وتوجه "**ألبرت**" إلى الباب الجانبي.

– هل لي أن أضعها بالمرأب يا سيدي؟ فقال "**تومي**":

– لا. سأفعل هذا بنفسي. أعتقد أنك مشغول بإعداد العشاء. هل تأخرت جدًا؟

– لا يا سيدي. في حوالي التوقيت الذي ذكرته. ومبكرًا عنه قليلاً في الواقع. أودع "**تومي**" السيارة بالمرأب ثم دخل المطبخ يفرك يديه:

– الجو بارد بالخارج. أين "**توبنس**"؟

– سيدتي. هي بالطابق الأعلى مع الكتب.

– ماذا. ما زالت مع تلك الكتب البائسة؟

– نعم. قامت بترتيب عدد كبير منها اليوم وقضت القدر الأكبر من الوقت في القراءة. فقال "**تومي**":

– يا إلهي! حسنًا يا "**ألبرت**". ماذا سنأكل؟

– شرائح سمك موسى بالليمون يا سيدي. لن يستغرق إعدادها طويلاً.

– حسنًا أعدها في غضون ربع الساعة أو حوالي ذلك لأنني أريد أن أغتسل أولاً.

كانت "**توبنس**" لا تزال جالسة فوق المقعد المجنح الرث بالطابق الأعلى مستغرقة في قراءة "**السهم الأسود**"، وعلى جبينها قدر من التجاعيد. كانت قد بلغت ما بدا لها أنه ظاهرة غريبة. بدا أن هناك ما لا يمكنها أن تنعته إلا بأنه نوع من التدخل. الصفحة التي وصلت إليها هي .. ألقت بنظرة خاطفة

عليها، 64 أم أنها 65؟ .. لم تتمكن من الرؤية.. على أية حال يبدو أن شخصًا ما قد وضع خطوطا تحت بعض الكلمات بهذه الصفحة. قضت "**توبنس**" ربع الساعة الأخيرة تدرس هذه الظاهرة. لم تر سببًا لوضع خطوط تحت هذه الكلمات. لم تكن متتالية ولم تكن بالتالي اقتباسًا بالكتاب. بدا أنها كلمات قد أفردت ثم وضعت تحتها خطوط بالمداد الأحمر. قرأت بصوت هامس: "لم يستطع "**ماتشم**" كبح صيحة خافتة. انتبه "**ديك**" فجأة بدهشة وتخلت أصابعه عن النافذة. كان الجميع وقوفًا ينتزعون السيوف والخناجر من أغمادها. رفع "**إليس**" يده ولاح بريق بياض عينيه .. "هزت "**توبنس**" رأسها. لا معنى لما قرأت. لا معنى لأي جزء منه.

توجهت إلى المنضدة التي تحتفظ عليها بأدوات كتابتها والتقطت بضعة أوراق مما كانت شركة طبع ورق الرسائل قد أرسلته إلى آل "**بيريسفورد**" مؤخرًا لاختيار نوعية الورق الذي سيطبع عليه عنوانهم الجديد: الغار. قالت "**توبنس**":

– اسم غبي. وإذا ظللنا نغير عناويننا طوال الوقت فستضيع كل رسائلنا. دوّنت شيئًا ما. تبينت الآن شيئًا لم تكن قد تبينته من قبل. قالت:

– هذا يكشف عن أمر جديد تمامًا. تابعت حروفًا بالصفحة. سمعت صوت "**تومي**" يقول فجأة:

– أنت هنا إذن. العشاء معد تقريبًا. كيف تجري الأمور مع هذه الكتب؟ قالت "**توبنس**":

– هذه المجموعة محيرة جدًا. محيرة إلى حد مذهل.

– ما الذي يحير؟

– حسنًا. هذه هي رواية "**السهم الأسود**" للمؤلف "**ستيفنسون**". وددت أن أقرأها مرة أخرى وبدأت. كانت على خير ما يرام ثم فجأة بدت جميع

الصفحات غريبة إلى حد ما بسبب أن عدداً كبيراً من الكلمات وضعت أسفله خطوط بالمداد الأحمر. قال "**تومي**" :

– حسنًا. هذا أمر معتاد. كثيرون يفعلون ذلك. لا أعني المداد الأحمر تحديداً ولكن ما أعنيه هو أن المرء يضع الخطوط تحت أشياء يريد أن يتذكرها أو تحت اقتباس معين أو شيء من هذا القبيل. تفهمين ما أعنيه. قالت "**توبنس**" :

– أعلم ما تعنيه. لكن الأمر ليس كذلك. وإنها .. إنها حروف. فقال "**تومي**" :

– ماذا تعنين بحروف؟ فقالت **توبنس**" :

– تعال إلى هنا.

اقترب "**تومي**" منها وجلس فوق المسند الجانبي للمقعد وقرأ: "لم يستطع "**ماتشم**" كبح صيحة خافتة وانتبه "**ديك**" فجأة بدهشة وتخلت أصابعه عن النافذة، والرجلان كبيرا الحجم. فوق شيء ما لا أستطيع قراءته، كانت القوقعة إشارة متوقعة. كانوا جميعًا وقوفًا معًا يثبتون وينتزعون السيوف والخناجر" . قال:

– إنه جنون. وقالت "**توبنس**" :

– نعم. هذا ما ظننته في بادئ الأمر. إنه جنون. ولكنه ليس جنونًا يا"**تومي**" ؟ سمع صوت رنين قادم من الطابق الأسفل.

– إنه العشاء قد أعد. فقالت "**توبنس**" :

– لا بأس. ينبغي أن أخبرك بهذا أولاً. يمكننا الحصول على معلومات عنه فيما بعد ولكنه غريب جداً. ينبغي أن أقول لك هذا مباشرة.

– حسنًا. هل راودك أحد أوهامك؟

– لا . كل ما في الأمر هو أنني أخرجت هذه الحروف المنتقاة من كلمات متفرقة بالصفحة والتي وضعت تحتها الخطوط الحمراء كما ترى: حرف م من

الاسم "**ماتشم**" وهكذا.. وقمت بتجميعها بهذه الورقة. انظر. فقال "**تومي**":

– كفي عن ذلك بحق السماء. فقالت "**توبنس**":

– انتظر. لابد لي من أن أكتشف. بعد أن قمت بتجميع هذه الحروف فوق هذه الورقة هل ترى ما حصلت عليه من الحروف التي حصلت عليها أولاً؟ م–ا – ر – ي. هذه الأحرف كانت تحتها خطوط.

– وماذا تعني هذه؟

– تؤلف كلمة "**ماري**". فقال "**تومي**":

– حسنًا. تؤلف كلمة "**ماري**". شخصية ما تدعى "**ماري**". ربما إنها طفلة ذات طبيعة ابتكارية تحاول الإشارة إلى أن هذا الكتاب ملك لها. دائما ما يكتب الناس أسماءهم على الكتب وما إلى ذلك. قالت "**توبنس**":

– حسنا. "**ماري**". والشيء التالي الذي يأتي تحته خطوط يَكوِّن كلمة ج – و – ر – د– ا – ن. فقال "**تومي**":

– أرأيت؟ "**ماري جوردان**". أمر طبيعي تمامًا. لقد عرفت الآن اسمها كاملاً. اسمها هو "**ماري جوردان**".

– حسنًا. لم يكن هذا الكتاب لها. في صدر الكتاب يقول بخط يد غير متقن واضح إنه لصبي، إنه "**ألكسندر**". "**ألكسندر باركنسون**" على ما أذكر.

– حسنا. وهل لذلك أهمية؟ فقالت "**توبنس**":

– له أهمية بكل تأكيد. فقال "**تومي**":

– هيا بنا. أنا جائع جداً. فقالت "**توبنس**":

– اصبر قليلاً. سوف أقرأ لك الجزء التالي حتى تتوقف الكتابة.. أو التي تتوقف – على أية حال – في الأربع صفحات التالية. اختيرت الحروف من أماكن غريبة بصفحات مختلفة. لا تأتي في تتابع.. من المستحيل أن يكون

بالكلمات شيء ذو أهمية .. الأهمية للحروف فقط. والآن: لدينا "**ماري جوردان**". هذا صحيح. والآن هل تعلم ما هي الكلمات الأربع التالية؟ "لم تكن وفاتها طبيعية". والآن ما هذا؟ ""**ماري جوردان**" لم تكن وفاتها طبيعية". وإليك الجملة التالية التي قمت بتجميعها: "إنه واحد منا. أعتقد أنني أعرف من هو". هذا كل ما هناك. لم أستطع الاهتداء إلى شيء آخر. ولكنه مثير، أليس كذلك؟ قال "**تومي**":

– اسمعيني يا "**توبنس**" لن تفعلي شيئًا بشأن هذا. أليس كذلك؟

– ماذا تعني بألا أفعل شيئًا بشأن هذا؟

– أعني أن تعتبريه لغزًا وتسعي إلى الكشف عنه. فقالت "**توبنس**":

– حسنا. إنه لغز لي. ("**ماري جوردان**" لم تكن وفاتها طبيعية. إنه واحد منا. أعتقد أنني أعرف من هو). آه يا "**تومي**". لابد أن تعترف بأنه لغز مثير.

*****

- 3 -

زيارة إلى المقابر

دخل "**تومي**" المنزل مناديًا:

- "**توبنس**". ولم يتلق إجابة. أسرع إلى أعلى الدرج بشيء من الحيرة ومنه إلى الممر بالطابق الأول. وبينما هو مسرع السير كاد أن يضع قدمه في حفرة واسعة. فقال بضيق:

- كهربائي آخر مهمل.

تعرض للمضايقة ذاتها قبل أيام. كان عدد من الكهربائيين قد حضروا يحدوهم قدر من التفاؤل والإحساس بالكفاءة. قالوا: "لقد أنجزنا الجزء الأكبر من المطلوب الآن ولم يبق الكثير. سنعود بعد ظهر اليوم" ولكنهم لم يعودوا بعد ظهر ذلك اليوم، لم يدهش "**تومي**" لذلك تحديدًا؛ لأنه اعتاد الآن النمط العام للعمل في صناعة البناء والكهرباء ومستخدمي مرفق الغاز وغيرهم. فهم يأتون ويبدون كفاءة وعددًا من الملاحظات الداعية للتفاؤل ثم يذهبون ليحضروا شيئًا ما ولا يعودون. ويحاول المرء الاتصال بهم هاتفيًّا ولكن أرقام الهواتف تبدو خطأ دائمًا. وإذا حدث أن كانت صحيحة يكون الشخص المطلوب غير عامل بهذا الفرع المعين للشركة، أيًّا كان. وكل ما يصبح على المرء أن يفعله هو أن يكون حذرًا حتى لا يصيب كاحلاً أو يسقط في حفرة أو يؤذي نفسه بطريقة أو بأخرى. كان خوفه من أن تصاب "**توبنس**" بأي أذى يفوق خوفه من أن يصاب هو بأي ضرر. فقد كان أكثر خبرة من "**توبنس**". وكان يرى أنها أكثر تعرضًا لمخاطر الإصابة بالحروق والسوافع من أواني الطهي أو حوادث حرارة الموقد. لكن أين هي "**توبنس**" الآن. نادى ثانية:

- "**توبنس**"! "**توبنس**"!

قلق عليها. فهي واحدة ممن ينبغي القلق عليهن: عندما تغادر البيت تودعها ببعض النصائح الحكيمة وتعدك بأن تفعل ما قد نصحتها به تمامًا. لا،

لن تغادر البيت إلا لشراء نصف كيلوجرام زبد فقط، وبعد كل ذلك لا تستطيع أن تسمي ذلك خطراً، أليس كذلك؟ تذكر "**تومي**" حواراً دار بينهما في هذا الشأن على هذا النحو:

– من الممكن أن يكون هناك خطر إذا خرجت أنت لشراء نصف كيلوجرام زبد. قالت "**توبنس**":

– لا تكن أحمق. قال "**تومي**" آنذاك:

– لست أحمق. كل ما هنالك أنني زوج حكيم وحريص، أرعى شيئًا هو أحد ممتلكاتي المفضلة وإن كنت لا أعلم لماذا هي.. فقاطعته "**توبنس**" بقولها:

– لأنني فاتنة وحسنة المظهر جداً ولأنني رفيقة متميزة ولأنني شديدة الاهتمام بك. فقال "**تومي**":

– ربما هذا أيضاً، وإن كان باستطاعتي أن أقدم لك قائمة أخرى. فقالت "**توبنس**":

– لا أشعر بأنها ستكون مرضية. لا. لا أعتقد ذلك. أظن أن لديك عدداً من الشكاوى المدَّخرة. لكن لا تقلق. سيكون كل شيء على خير ما يرام. ما عليك سوى أن تعود وتناديني عندما تدخل البيت. قال "**تومي**" في نفسه: "لكن الآن أين "**توبنس**" الشيطانة الصغيرة؟ لقد ذهبت إلى مكان ما".

دخل تلك الحجرة بالطابق الأعلى حيث كان قد وجدها من قبل، مفترضاً أن تكون مستغرقة في قراءة كتاب طفل آخر.. تثير فضولها بعض كلمات حمقاء أخرى قام طفل أحمق بتخطيطها بالمداد الأحمر. تقتفي أثر "**ماري جوردان**" أيًّا كانت. "**ماري جوردان**" التي لم تمت موتًا طبيعيًا. لم يسعه سوى أن يتساءل. منذ زمن بعيد كان اسم من كان لهم هذا المنزل وباعوه لهم هو آل "**جونز**". لم يمكثوا به طويلاً.. ثلاث أو أربع سنوات فقط. لا. يرجع تاريخ هذا الطفل صاحب كتاب "**روبرت لويس ستيفنسون**" إلى زمن أسبق بكثير. على أية حال لم تكن "**توبنس**" هنا بالحجرة. ولم تبد هناك أية كتب

في غير موضعها بالأرفف بها علامات تشير إلى وجود ما يثير الاهتمام بها. قال "**تومي**" :

– آه .. أين من الممكن أن تكون؟

عاد إلى الطابق الأسفل ونادى مرة أو اثنتين. ولم يتلق إجابة. ألقى نظرة إلى أحد المشاجب بالجدار. لم يكن هناك وجود لمعطف "**توبنس**" الواقي من الأمطار. لقد خرجت من المنزل إذن. أين ذهبت؟ وأين "**هانيبال**"؟ غيَّر "**تومي**" نبرة صوته ونادى:

– "**هانيبال**" .. "**هانيبال**" .. يا ولد يا "**هاني**". أقبل إليّ يا "**هانيبال**". ولم يكن هناك "**هانيبال**".

حسنا. على أية حال اصطحبت "**هانيبال**" معها. ولم يعلم ما إذا كان من الأفضل أو من الأسوأ أن يكون "**هانيبال**" معها. من المؤكد ألا يسمح "**هانيبال**" بأن يلحق بـ"**توبنس**" أي أذى. والسؤال هو هل من المحتمل أن يلحق "**هانيبال**" ضرراً بأي أحد؟ هو ودود عندما يُصطحب في الزيارات لكن من يريدون زيارة "**هانيبال**" ودخول أي منزل يعيش فيه كانوا دائماً موضع شك مؤكد في رأي "**هانيبال**"، كان على استعداد دائم تحت أي ظرف لأن ينبح ويعض أيضا إذا ارتأى ضرورة لذلك. على أية حال أين كلاهما؟

سار مسافة قصيرة في الشارع ولم ير أية علامة على وجود كلب أسود صغير بصحبة امرأة متوسطة الحجم ترتدي معطف مطر باللون الأحمر الزاهي، يسير من بعد. وأخيراً عاد إلى المنزل غاضباً قليلاً. قابلته رائحة فاتحة للشهية. أسرع إلى المطبخ حيث استدارت "**توبنس**" نحوه من أمام الموقد وابتسمت مرحبة. قالت:

– لقد تأخرت كثيراً. هذه صينية. رائحتها مشهية. ألا ترى ذلك؟ أضفت إليها بعض الأشياء غير المعتادة في هذه المرة. بعض الأعشاب العطرية من الحديقة، آمل أن تكون أعشاباً عطرية على الأقل. فقال "**تومي**" :

– إذا لم تكن أعشاباً عطرية فلابد أن تكون حشيشة البنج القاتلة أو أوراق القمعية التي تبدو وكأنها شيء آخر بينما هي القمعية المعروفة باسم "**قفاز**

الثعلب" . أين كنت بحق السماء؟

– اصطحبت "**هانيبال**" للتمشية.

جعل "**هانيبال**" وجوده ملموسًا في تلك اللحظة. اندفع نحو "**تومي**" مرحبًا باحتفالية كادت تسقط الرجل على الأرض. كان "**هانيبال**" كلبًا أسود لامع الشعر جدًا، على فخذيه وعلى كلا وجنتيه رقعة بنية اللون، من سلالة نقية جدًا من فصيلة كلاب صيد "**مانشستر**" المعروفة بالذكاء وكان يعتبر نفسه على مستوى عالٍ جدًا من الرقي والأرستقراطية بالنسبة إلى أي كلب آخر التقى به.

– يا إلهي! بحثت عنك في كل مكان. أين كنت؟ الجو ليس صحوًا جدًا.

– هذا صحيح، غائم ومضبب. آه.. وأنا متعبة جدًا أيضًا.

– إلى أين ذهبت؟ حتى نهاية الشارع فقط إلى المتاجر؟

– لا. إنه يوم الإقفال المبكر للمتاجر. لا. ذهبت إلى المقابر. قال "**تومي**" :

– عبارة كئيبة الوقع. ولماذا أردت الذهاب إلى المقابر؟

– ذهبت لألقي نظرة إلى بعض المقابر. فقال "**تومي**" :

– لا يزال لقولك وقع كئيب. هل استمتع "**هانيبال**" بهذه التمشية؟

– اضطررت إلى أن أضع المقود بطوق عنقه. كان هناك شيء شبيه بقندلفت (خادم كنسي) ظل يخرج من الكنيسة ورأيت أنه لن يرحب بوجود "**هانيبال**" لأن .. لا تعرف أبدًا، قد لا يستحسنه "**هانيبال**" ولم أحب أن يتحامل الناس علينا فور وصولنا.

– ولماذا أردت أن تلقي نظرة إلى المقابر؟

– لأرى نوعية الناس الراقدين هناك، كثيرون جدًا. أعني أنها ممتلئة تمامًا. ويرجع تاريخها إلى عهد سحيق.. إلى أعوام 1800 وأعتقد أن بعضها أقدم من ذلك، لكن الشاهد ممحو إلى حد عدم إمكان قراءة ما كان عليه.

– لا أزال لا أرى سببًا لأن ترغبي في الذهاب إلى المقابر. فقالت "**توبنس**" :

– كنت أجري بحثي.

– بحثك في ماذا؟

– أردت أن أرى ما إذا كان هناك أي من آل "**جوردان**" بين الراقدين هناك. فقال "**تومي**":

– يا إلهي! هل مازلت تفكرين في هذا الموضوع؟ هل كنت تبحثين عن...

– حسنا. ماتت "**ماري جوردان**". نعلم هذا. ونعلمه لأنه قد وقع في أيدينا كتاب يقول إن موتها لم يكن طبيعيًا. ومع ذلك لابد أن تكون قد دفنت في موضع ما. أليس كذلك؟ فقال "**تومي**":

– ما من شك في هذا. مالم تكن قد دفنت بهذه الحديقة. قالت "**توبنس**":

– لا أظن أن هذا محتمل جدًا؛ لأني أظن أن هذا الصبي أو الفتاة فقط.. لابد أنه صبي أظن ذلك .. هو صبي بالتأكيد واسمه "**ألكسندر**"، وواضح أنه ذكي –إلى حد ما– بحيث علم أن وفاتها لم تكن طبيعية. وحيث إنه الوحيد الذي قرر ذلك أو اكتشفه.. فلم يعرف أحد آخر عنه شيئًا كما أفترض. ما أعنيه هو أنها توفيت ودفنت ولم يقل أحد... فقال "**تومي**" مكملاً عبارتها:

– ولم يقل أحد إنها جريمة.

– نعم. شيء من هذا القبيل. قتلت بالسم أو ضربت على الرأس أو ألقي بها من فوق صخرة أو دهمت تحت عجلات سيارة.. هناك طرق كثيرة يمكنني التفكير فيها. قال "**تومي**":

– أنا واثق بأنه يمكنك. والحسنة الوحيدة فيك يا "**توبنس**"، هي أن لك قلبًا طيبًا. لن تسلميهم إلى حبل المشنقة لمجرد اللهو.

– لكن لم يكن بالمدافن أحد اسمه "**ماري جوردان**"، بل لم يكن هناك أحد منسوب إلى آل "**جوردان**". فقال "**تومي**":

– أمر مخيب لآمالك. هل ذلك الشيء الذي تطهينه قد نضج بعد لأنني جائع جدًا. رائحته مشهية جدًا. فقالت "**توبنس**":

– إنه معد تمامًا. وبمجرد أن تغسل يديك نأكل.

*****

- 4 -

عدد كبير من آل "باركنسون"

قالت "**توبنس**" بينما هما يتناولان الطعام:

– عدد كبير من آل "**باركنسون**". منذ زمن بعيد مضى. ولكن أعدادهم مذهلة. كبار السن وصغار السن ومتزوجون. المكان مزدحم بآل "**باركنسون**". وآل "**كيب**" وآل "**جريفين**" وآل "**أندروود**" (سكان أسفل الغابة). وآل "**أوفروود**" (سكان أعلى الغابة). غريب أن يجتمع هذان معًا. أليس كذلك؟ قال "**تومي**":

– كان لي صديق اسمه "**جورج أندروود**".

– وأنا أيضًا عرفت أناسًا ملقبين بـ"**أندروود**" أيضًا ولكنني لم أعرف أحدًا باسم "**أوفروود**". سأل "**تومي**" بقدر طفيف من الاهتمام:

– ذكورًا أم إناثًا؟

– أعتقد أنها فتاة. اسمها "**روز أندروود**". فقال "**تومي**" مصغيًا إلى وقع الاسم:

– "**روز أندروود**". لا أعتقد أن الاسم متسق مع بعضه البعض. ثم أضاف:

– ينبغي أن أتصل بعمال الكهرباء هاتفيًا بعد الغداء. توخي بالغ الحذر يا "**توبنس**" وإلا انزلقت قدمك في المنبسط بالطابق الأعلى.

– وبذلك أكون وفاة طبيعية أو وفاة غير طبيعية، إحدى هاتين. فقال "**تومي**":

– وفاة فضول. الفضول قاتل. سألته "**توبنس**":

– ألست محبًا للاستطلاع؟

– لا أرى سببًا وجيهًا لأن أكون فضوليًا؟ ماذا لدينا للتحلية؟

– تورتة دبس السكر.

– حسنًا. ينبغي أن أعترف يا "**توبنس**" بأنها وجبة شهية. فقالت "**توبنس**":

– يسرني جداً أنها أعجبتك.

– ما ذلك الطرد الذي خارج الباب الخلفي؟ هل هو النبيذ الذي كنا قد طلبناه؟ فقالت "**توبنس**":

– لا. إنها شتلات. فقال "**تومي**":

– آه .. شتلات. وقالت "**توبنس**":

– شتلات التيوليب. سوف أذهب وأتحدث مع "**إيزاك**" عنها.

– أين ستغرسينها؟

– أعتقد على طول الممر الأوسط بالحديقة. قال "**تومي**":

– مسكين ذلك الرجل العجوز يبدو وكأنه سيسقط ميتاً في أية لحظة. قالت "**توبنس**":

– أبداً. "**إيزاك**" قوي جداً. لقد اكتشفت أن البستانيين هكذا دائماً. إذا كانوا على مستوى جيد جداً من الخبرة يبدون وكأنهم يبلغون ريعان الشباب عندما يتجاوزون الثمانين، ولكنك إذا حصلت على شاب بادي الضخامة في حوالي الخامسة والثلاثين ويقول: "دائماً ما رغبت في العمل بإحدى الحدائق" فلك أن تتأكد من أنه لا يصلح أبداً. فأمثال هؤلاء مهيَّئون لانتزاع بعض الأوراق الجافة من حين إلى آخر، وأي شيء تريد منهم أن يفعلوه دائماً ما يقولون لك إنه التوقيت غير المناسب من العام، وحيث إن المرء نفسه لا يعلم متى يكون التوقيت الصحيح – أنا لا أعلم ذلك على الأقل – دائماً ما يستغلون نقطة الضعف هذه. أما "**إيزاك**" فهو مدهش. يعرف الكثير عن كل شيء. وبهذه المناسبة ينبغي أن يكون هناك بعض زهور الزعفران أيضاً. أتساءل عما إذا كانت ضمن هذا الطرد أيضاً. حسناً. سأذهب وألقي نظرة. هذا يوم مجيئه وسوف يخبرني بكل شيء عنها. قال "**تومي**":

– حسناً. وسوف آتي وألحق بك حالاً.

كان هناك اجتماع ودّي بين "**توبنس**" و"**إيزاك**". تم فض الطرد المحتوي على الشتلات وإقامة المناقشات الهادفة إلى اختيار أفضل الأماكن لتحقيق أكبر

استفادة من منظر هذه الزهور. أولاً زهور التيوليب الببغائي ذي الحافة الأنيقة ولبعضها - طبقًا لذاكرة "**توبنس**" - اسم "**فيريدي فلورا**"، تكون ذات جمال خاص وسوق طويلة في شهر أيار (مايو) وأوائل شهر حزيران (يونيو). وحيث إن لهذه لونًا أخضر باهتًا أنيقًا اتفقا على غرسها كمجموعة في موضع هادئ من الحديقة حيث يمكن قطفها وتنسيقها في مجموعات زهرية بحجرة الاستقبال، أو بجوار الممر القصير المؤدي إلى المنزل عبر الباب الخارجي حيث يمكن أن تثير مشاعر الغيرة والحسد في نفوس الزائرين. ولابد لهذه من أن تبهج المشاعر الفنية للبائعين الذين يحملون إليهم طلباتهم من اللحوم وأصناف البقالة والخضراوات.

في الساعة الرابعة أعدت "**توبنس**" إبريقا بني اللون من الشاي الأحمر بالمطبخ ووضعت بجواره سكّرية مملوءة بقطع السكر وإبريق حليب (لبن) صغيراً ونادت "**إيزاك**" ليجدد نشاطه قبل الانصراف، ثم توجهت هي بحثًا عن "**تومي**".

حدثت نفسها بأنه من الممكن أن يكون نائمًا في مكان ما بينما كانت تبحث عنه في حجرة بعد الأخرى. سرّها أن رأت رأسًا يطل من الحفرة الكئيبة التي بأرضية المنبسط. قال الكهربائي:

- أصبح كل شيء على خير ما يرام الآن. لا حاجة بك إلى الحذر بعد الآن. لقد تم إصلاح كل شيء. ثم أضاف قوله إنه سوف يبدأ العمل بقطاع آخر من المنزل في صباح اليوم التالي. وقالت "**توبنس**":

- آمل أن تأتي حقا. ثم أضافت:

- هل رأيت السيد "**بيريسفورد**" في أي مكان؟

- نعم. تعنين زوجك؟ نعم. أظن أنه في الطابق الأعلى. كانت أشياء تسقط منه. أشياء ثقيلة أيضا. لابد أنها كتب على ما أعتقد. فقالت "**توبنس**":

- كتب! ما تصورت ذلك قط.

تراجع الكهربائي إلى عالمه التحتي بالممر وصعدت "**توبنس**" إلى العلية التي تحولت إلى مكتبة إضافية تم تخصيصها حاليًا لكتب الأطفال. كان "**تومي**" جالسًا فوق زوج من الدرجات وعدد من الكتب حوله فوق الأرضية وفراغات ملحوظة بالأرفف. قالت "**توبنس**":

– أنت هنا إذن بعد أن تظاهرت بعدم الاهتمام. كنت تتصفح العديد من الكتب، أليس كذلك؟ لقد أخرجت عددًا كبيرًا من الكتب التي كنت أنا قد رتبتها بعناية من أماكنها. فقال "**تومي**":

– أنا آسف لذلك ولكنني فكرت في إلقاء نظرة إليها.

– هل عثرت على أية كتب أخرى بها أي شيء تحته خطوط بالمداد الأحمر؟

– لا. لا شيء آخر. فقالت "**توبنس**":

– كم هذا محير! وقال "**تومي**":

– أعتقد أن هذا لابد كان عمل "**ألكسندر**"، السيد "**ألكسندر باركنسون**". فقالت "**توبنس**":

– هذا صحيح. هو أحد آل "**باركنسون**". آل "**باركنسون**" كبيرو العدد.

– حسنًا. أعتقد أنه كان صبيًا خاملاً بعض الشيء وإن كان وضع هذه الخطوط أمرًا يدعو إلى الضيق. لكن لا مزيد من المعلومات بشأن "**جوردان**".

– سألت "**إيزاك**"، إنه يعرف كثيرين في هذه الناحية. أخبرني بأنه لا يذكر أي أفراد بهذا الاسم.

سأل "**تومي**" عندما أتى إلى الطابق الأسفل:

– ماذا أنت فاعلة بهذا المصباح النحاسي الذي وضعته بجوار الباب الخارجي؟ قالت "**توبنس**":

– سوف آخذه إلى متجر الأدوات المستغنى عنها.

– لماذا؟

– لأنه يسبب لي إزعاجًا دائمًا. كنا قد اشتريناه من بلد ما أجنبي. أليس كذلك؟

– نعم. لابد أننا كنا فاقدي الصواب. لم يعجبك قط. ذكرت أنك تكرهينه. حسنًا. أتفق معك. وهو ثقيل جدًا أيضًا.

– إلا أن الآنسة "**ساندرسون**" أبدت سرورًا بالغًا عندما أخبرتها بأنه يمكنهم أن يأخذوه. عرضت أن تأتي وتحمله من هنا ولكنني أخبرتها بأنني سأقوم بتوصيله إليهم بالسيارة. اليوم هو موعد تسليم الأشياء إليهم.

– سأقوم أنا بتوصيله إذا رأيت ذلك.

– لا. أفضل أن أذهب أنا. فقال "**تومي**":

– حسنًا. ربما من الأفضل أن آتي معك حتى أحمله إلى الداخل بدلاً منك. قالت "**توبنس**":

– أعتقد أنني سوف أجد أحدًا يحمله عني.

– حسنًا. قد تجدين وقد لا تجدين. احذري من حمله بنفسك حتى لا تجهدي عضلاتك. فقالت "**توبنس**":

– حسنًا.

– لديك سبب آخر لأن ترغبي في الذهاب. أليس كذلك؟ فقالت "**توبنس**":

– لقد فكرت فقط في أنني أحب أن أتحدث قليلاً مع الناس.

– أنا لا أعلم أبدًا ما أنت بصدده يا "**توبنس**" ولكنني أعلم النظرة التي تلوح بعينيك عندما تعتزمين فعل شيء ما. فقالت "**توبنس**":

– تولَّ أنت التمشي بـ"**هانيبال**". لا يمكنني أن آخذه معي إلى ذلك المتجر؛ فلا أحب أن أتورط في معركة كلاب.

– حسنا. أتحب أن تتمشى يا "**هانيبال**"؟

أجاب "**هانيبال**" بالإيجاب كعادته. كان من المستحيل عدم فهم إجاباته بالإيجاب أو بالنفي فكان يتلوى ويهز ذيله ويرفع أحد مخالبه ثم يضعه على الأرض ثانية ثم يقبل ويحك رأسه بشدة بساق "**تومي**". بدا لـ"**تومي**" وكأنه يقول:

– حسنًا إذن. هذا ما أنت تعيش من أجله يا صاحبي العزيز. سنذهب للتمشي طويلاً بالشارع. العديد من الروائح. كما أتمنى. ثم قال "**تومي**" :

– هيا. سوف آخذ المقود معي ولا تجر في الشارع كما فعلت في المرة الماضية. كادت إحدى تلك المركبات العملاقة أن تدهمك. نظر "**هانيبال**" إليه وعلى وجهه تعبير:

– أنا كلب مطيع دائمًا ألتزم بما يقال لي تحديداً. وعلى الرغم من زيف هذه العبارة إلا أنها دائمًا ما نجحت في خداع حتى ذوي الصلة الوثيقة بـ"**هانيبال**".

وضع "**تومي**" المصباح النحاسي بداخل السيارة وهو يتمتم بأنه ثقيل جدًّا وانطلقت "**توبنس**" على الطريق. وعندما رأى "**تومي**" أنها قد اتجهت إلى المنعطف ثبَّت المقود بطوق عنق "**هانيبال**" وأخذه إلى الشارع. انعطف بعد ذلك في الطريق المؤدي إلى الكنيسة وحلّ مقود "**هانيبال**" لأن حركة المرور كانت طفيفة في ذلك الطريق تحديداً. عبّر "**هانيبال**" عن امتنانه لذلك بالزمجرة وتنشق باقات العشب التي زين بها الرصيف الملاصق للجدار. ولو كان بإمكانه استخدام لغة البشر لكان قد قال:

– ممتع. غاية في الثراء. كلب مهم هنا. أعتقد أنه ذلك الألزاسي المتوحش. لا أحب الألزاس. لو أنني أرى ذلك الذي عضني ذات مرة ثانية فسأعضه. آه. ممتع. ممتع. كلبة صغيرة ظريفة هنا. نعم.. نعم. أحب أن ألقاها. أتساءل عما إذا كانت تعيش بعيداً عن هنا. أتوقع أن تخرج من هذا المنزل. إنني أتساءل الآن. قال "**تومي**" :

– اخرج من هذا الباب الآن. لا تدخل منزلاً ليس لك. تظاهر "**هانيبال**" بأنه لم يسمع ما قيل.

– "**هانيبال**"! ضاعف "**هانيبال**" سرعته وانعطف في زاوية مؤدية نحو المطبخ.. صاح "**تومي**" :

– "**هانيبال**"! هل تسمعني؟ فقال "**هانيبال**" :

– أسمعك يا سيدي؟ هل كنت تناديني؟ نعم. بالتأكيد.

ترامى إلى مسمعه صوت نباح حاد من داخل المطبخ. اندفع إلى الخارج لينضم إلى "**تومي**". سار "**هانيبال**" بضعة سنتيمترات خلف كعبي "**تومي**"، قال "**تومي**":

– ولد مطيع. وقال "**هانيبال**":

– أنا ولد مطيع، أليس كذلك؟ في أية لحظة تحتاج إليّ لكي أدافع عنك تجدني على بعد أقل من بضعة سنتيمترات منك.

كانا قد بلغا بوابة جانبية مؤدية إلى فناء الكنيسة. و"**هانيبال**" – الذي كانت لديه نزعة غير عادية إلى تغيير حجمه كلما كان يريد ذلك –بدلاً من أن يبدو عريض الكتفين إلى حد ما وربما مكتنزاً بدرجة كبيرة كان يمكنه في أية لحظة أن يجعل نفسه مثل خيط رفيع أسود. ضغط نفسه الآن من خلال قضبان البوابة بلا صعوبة تذكر. صاح "**تومي**":

– عد يا "**هانيبال**". لا يمكنك أن تدخل فناء الكنيسة.

وكانت إجابة "**هانيبال**" على ذلك، لو كان له أن يجيب فستكون: "أنا بداخل فناء الكنيسة بالفعل يا سيدي". كان يقفز فرحًا بداخل فناء الكنيسة بإحساس كلب أطلق في حديقة جميلة بصفة متفردة. قال "**تومي**":

– يا لك من كلب مزعج!

فتح البوابة ودخل وبدأ يطارد "**هانيبال**" والمقود بيده. كان "**هانيبال**" في تلك اللحظة بركنٍ بعيد من الفناء وبدا عاقد التصميم على محاولة الدخول من باب الكنيسة وكان مفتوحًا جزئيًّا. إلا أن "**تومي**" وصل إليه في التوقيت المناسب وثبت المقود بطوق عنقه. رفع "**هانيبال**" بصره إلى فوق بلسان حال من كان يتوقع طوال الوقت أن يحدث له ذلك. قال: "تضعني في المقود – أليس كذلك؟ نعم. أعلم بالتأكيد أن هذا نوع من التكريم. فهذا يظهر أنني كلب غالي الثمن جدًّا". ثم هز ذيله. وحيث إنه لم يبد أن كان هناك أحد يعترض على تمشي "**هانيبال**" في فناء الكنيسة مع صاحبه وهو مؤمَّن بما

يكفي بالمقود المتين، أخذ "**تومي**" يتجول في الفناء ربما فحصاً للأبحاث التي أجرتها "**توبنس**" في اليوم السابق.

تأمل أولا نصباً تذكارياً حجرياً بالياً خلف باب جانبي صغير مؤدٍّ إلى داخل الكنيسة. رأى أنه ربما يكون أحد أقدم الآثار الموجودة بالموقع. كان هناك عدد منها، كتبت على العدد الأكبر منها تواريخ تعود إلى أعوام 1800. وكان هناك واحد منها ظل "**تومي**" ينظر إليه مدة أطول. قال:

– غريب. غريب جداً.

رفع "**هانيبال**" بصره نحوه. لم يفهم هذا الجزء من حديث صاحبه. لم ير في بلاطة الضريح ما يثير اهتمام كلب. جلس على الأرض ورفع بصره نحو صاحبه متسائلا.

*****

- 5 -

متجر بيع الأشياء المستغنى عنها

دهشت "**توبنس**" بسرور عندما تبينت مدى الترحيب الدافئ بالمصباح النحاسي الذي كانت هي و"**تومي**" ينظران إليه بقدر كبير من الاشمئزاز.

- كم هو جميل منك يا سيدة "**بيريسفورد**" أن تحضري إلينا شيئًا ظريفًا كهذا. إنه مثير للاهتمام جداً. مثير للاهتمام تمامًا. أفترض أنه لابد قد أتى من خارج البلاد في أثناء أحد أسفاركم. وقالت "**توبنس**":

- نعم. اشتريناه من "**مصر**".

لم تكن واثقة تمامًا باسم البلد الذي كانت قد اشترته منه بعد فترة تتراوح ما بين ثماني إلى عشر سنوات سابقة. ربما كان ذلك في "**دمشق**" أو في "**بغداد**" أو "**طهران**" ولكنها رأت أن إجابتها بـ"**مصر**" سيكون لها وقع خاص في تلك اللحظة؛ حيث كان اسم "**مصر**" متداولاً في الأخبار آنذاك. فضلاً على ذلك بدا المصباح مصري الصنع. وواضح أنه لو كانت قد ابتاعته من أي بلد آخر فإن تاريخه يرجع إلى فترة كانوا يقلدون فيها الصناعة المصرية. قالت:

- في الواقع، إنه يبدو كبير الحجم بعض الشيء بما لا يناسب منزلنا؛ لذلك فكرت.. فقالت الآنسة "**ليتل**" ومعناها (الصغيرة):

- أرى أنه يجب أن نطرحه للبيع اليانصيبي.

كانت الآنسة "**ليتل**" هي المسؤولة عن هذه الأشياء بطريقة أو بأخرى. وكانت معروفة محليًا باسم مضخَّة الناحية والسبب الأساسي في هذا المسمى هو أنها كانت تعلم كل شيء عن كل ما يحدث بالناحية. وكان لقبها مضلِّلاً؛ إذ كانت ضخمة الحجم وكبيرة القسمات. أما اسمها هي فهو "**دوروثي**" ولكنهم كانوا ينادونها دائما باسم "**دودو**".

- آمل أن تأتي إلى المزاد يا سيدة "**بيريسفورد**". وأكدت لها "**توبنس**" أنها

سوف تأتي. قالت من قبيل الدردشة:

– إنني لشغوفة بأن آتي وأبتاع بعض السلع.

– إنني لسعيدة جدًّا بأن هذا هو شعورك. فقالت "**توبنس**":

– أعتقد أن هذا جميل جدًّا. أعني فكرة إقامة مزاد للسلع المستغنى عنها؛ لأنها واقعية جدًّا. ما يستغني عنه فرد يعتبره آخر لؤلؤة لا تقدر بثمن. فقالت الآنسة "**برايس ريدلي**"، وهي آنسة شديدة النحول بارزة الأسنان:

– نعم، و أرى أنه سيكون شديد الإعجاب به. فقالت "**توبنس**" وهي ترفع حوضًا من الورق المعجَّن:

– هذا الحوض مثلاً..

– تعتقدين أن أحداً سوف يشتريه؟ فقالت "**توبنس**":

– سوف أشتريه أنا لو كان معروضا للبيع عندما آتي إلى هنا غداً.

– لكن هناك في هذه الأيام أطباق بلاستيكية جميلة عميقة للغسيل. فقالت "**توبنس**":

– لست معجبة بالبلاستيك جدًّا. وهذا الحوض المصنوع من الورق المعجَّن الذي لديك هنا جيد جدًّا. أعني إذا وضعت به أشياء: عدداً من القطع الصيني معًا لا تنكسر. وهناك أيضًا فتاحة علب عتيقة الطراز أيضًا. من النوعية ذات رأس الثور التي لا نراها أبداً في هذه الأيام.

– آه، لكنها تتطلب مجهوداً. ألا ترين أن تلك التي تعمل بالكهرباء أفضل بكثير؟ تواصل الحديث عن مثل هذه الأمور مدة قصيرة سألت "**توبنس**" بعدها عما إذا كانت هناك خدمات يمكنها القيام بها.

– آه يا سيدة "**بيريسفورد**". ربما يمكنك ترتيب كشك (ركن) التحف. أنا واثقة بأنك فنانة. فقالت "**توبنس**":

– لست فنانة جدًّا ولكنني أرحب بأن أرتب هذا الركن لك، شريطة أن تلفتي نظري إذا أخطأت.

– جميل أن أتلقى مساعدة إضافية. سررنا لمجيئك. أفترض أنكم أصبحتم

شبه مستقرين بمنزلكم الآن؟ فقالت "**توبنس**" :

– كنت أظن أننا لابد أن نكون قد استقررنا الآن لكن يبدو أننا لا يزال أمامنا وقت طويل حتى نستقر تمامًا. نجد صعوبة كبيرة من جانب عمال الكهرباء والنجارين وغيرهم. لابد من استدعائهم ثانية.

نشأ نقاش محدود مع الجالسات معها يؤيد مطالب عمال الكهرباء والغاز. قالت الآنسة "**ليتل**" بعده بحزم:

– عمال الغاز هم الأسوأ؛ لأنهم يأتون عبر مسافة بعيدة بينما عمال الكهرباء يأتون من أماكن قريبة.

غيّر مجيء القس – ليقول بعض الكلمات المشجعة لمساعدتيه – مجرى الحديث. وعبَّر أيضًا عن سروره للقاء السيدة "**بيريسفورد**" المقيمة الجديدة في الناحية. قال:

– نعرف كل شيء عنك. صحيح. وعن زوجك. دار حديث شائق عنكما منذ بضعة أيام. يا لها من حياة مثيرة تلك التي لابد أنكما عشتماها! أرى أنه من غير المفترض الخوض فيها؛ لهذا لن أتحدث عنها. أعني أثناء الحرب الأخيرة. أداء رائع من جانبك وجانب زوجك. قالت إحدى الآنستين مبتعدة عن الركن الذي كانت ترتب فيه برطمانات مربى:

– حدثنا عنها يا جناب القس. فقال القس:

– ما قيل لي كان سرًّا لا ينبغي البوح به. أعتقد أنني رأيتك تسيرين في فناء الكنيسة أمس يا سيدة "**بيريسفورد**". فقالت "**توبنس**" :

– نعم. ألقيت نظرة بداخل الكنيسة أولاً. أرى أن لديكم نافذتين غاية في الجاذبية.

– نعم. نعم. يرجع تاريخهما إلى القرن الرابع عشر. أعني النافذة المطلة على الممر الشمالي. ولكن العدد الأكبر من النوافذ الأخرى يرجع إلى عصر الملكة "**فيكتوريا**". قالت "**توبنس**" :

– عندما تجولت في فناء الكنيسة بدا لي أن عددًا كبيرًا من آل "**باركنسون**"

راقدون هناك.

– نعم. هذا صحيح. دائمًا ما كانت هنا فرق كبيرة ممثلة لآل "**باركنسون**" في هذا الجزء من العالم، وإن كنت أنا لا أذكر أيًّا منهم، ولكنني أعتقد أنك تذكرين بعضهم يا سيدة "**لابتون**".

بدا السرور واضحًا على وجه السيدة "**لابتون**" التي كانت تستند إلى عكازين. قالت:

– نعم. نعم. أذكر عندما كانت السيدة "**باركنسون**" على قيد الحياة، السيدة "**باركنسون**" العجوز التي كانت تعيش في القصر. كانت سيدة مدهشة. مدهشة جدًّا.

– ورأيت هناك عددًا من آل "**سومر**" وآل "**تشاترتون**".

– آه. أرى أنك قطعت شوطًا لا بأس به في معرفة جغرافيتنا المحلية الماضية.

– أعتقد أنني سمعت شيئًا عن فتاة تدعى "**جوردان**" .. كان اسمها "**آني**" أم "**ماري جوردان**"؟ قالت "**توبنس**" ذلك ثم نظرت حولها مستفسرة. بدا أن اسم "**جوردان**" لم يثر اهتمامًا معينًا.

– كان لإحداهن طاهية اسمها "**جوردان**" على ما أعتقد. هي السيدة "**بلاكويل**" أعتقد أن اسمها هو "**سوزان جوردان**". أعتقد أنها لم تمكث أكثر من ستة أشهر. مدة غير كافية من نواحٍ كثيرة.

– وهل كان ذلك منذ زمن بعيد؟

– لا. منذ ثماني أو عشر سنوات فقط على ما أذكر. ليس أكثر.

– وهل يوجد أي من آل "**باركنسون**" يعيشون هنا حاليا؟

– لا. لقد رحلوا منذ زمن طويل. تزوج أحدهم ابنة عمه وسافر إلى "**كينيا**" ليعيش هناك كما أعتقد. قالت "**توبنس**" وقد نجحت في الارتباط بحديث مع السيدة "**لابتون**" التي كانت تعلم أنها على صلة بمستشفى الأطفال المحلي:

– أتساءل عما إذا كنتم محتاجين إلى عدد من كتب الأطفال. جميعها

قديمة. حصلت عليها بكمٍّ كبير عندما قدمنا عرضًا لشراء بعض الأثاث الذي كان معروضًا للبيع بمنزلنا.

– حسنًا. هذا جميل منك يا سيدة "**بيريسفورد**" بالتأكيد، لدينا بالفعل بعض الكتب الجيدة التي حصلت عليها من البعض. طبعات خاصة بالأطفال من التي تصدر في هذه الأيام. الواحد منا يشعر بالإشفاق عليهم من اضطرارهم إلى قراءة كل هذه الكتب القديمة الطراز. قالت "**توبنس**":

– هل هذا رأيك؟ أحببت الكتب التي كانت لي وأنا صغيرة. كان بعضها لجدتي عندما كانت طفلة أيضًا. أعتقد أنني أحببت هذه أكثر من أية كتب أخرى. لن أنسى أبدًا قراءة "**جزيرة الكنز**" و"**مزرعة السيدة مولزورث ذات الرياح الأربع**" وبعض مؤلفات "**ستانلي ويمان**".

نظرت حولها مستفسرة ثم ألقت نظرة إلى ساعة معصمها ودهشت لتجد أن الوقت قد تأخر جدًا فاستأذنت بالرحيل. وصلت "**توبنس**" إلى البيت حيث أودعت السيارة بالمرأب وسارت حول المنزل إلى الباب الخارجي. كان الباب مفتوحًا فدخلت. أتى "**ألبرت**" من القطاع الخلفي للمنزل وانحنى محييًا.

– هل لك في قدر من الشاي يا سيدتي؟ لابد أن تكوني متعبة تمامًا. فقالت "**توبنس**":

– لا أظن ذلك. لقد تناولت شايًا هناك في المعهد مع قطعة كعك جيدة، ولكن الكعك المحلى لم يكن مقبولاً قط.

– صنع هذا النوع من الكعك صعب. يضارع صعوبة صنع الكعك المحلّى المقلي تقريبًا. ثم تنهد مستطردًا:

– كانت "**آمي**" تجيد صنع الكعك المحلّى المقلي. فقالت "**توبنس**":

– أعلم. لم يصنع أحد مثل كعكها.

كانت "**آمي**" هي زوجة "**ألبرت**" وقد توفيت منذ بضع سنوات. وفي رأي "**توبنس**" أن "**آمي**" كانت تجيد صنع تورتة دبس السكر ولكنها لم تكن عند

ذات المستوى في صنع الكعك المحلَّى المقلي. قالت "**توبنس**" :

– أعتقد أن صنع الكعك المحلَّى المقلي صعب جداً. لم أستطع صنعه قط.

– حسنا. إنها موهبة وبراعة خاصة.

– أين السيد "**بيريسفورد**"؟ خارج البيت؟

– آه. لا. إنه بالطابق الأعلى. بحجرة الكتب أو ما تحبين أن تسمي هذا المكان. أما أنا فمازلت غير قادر على أن أغير مفهومي لها بأنها العلية. سألت "**توبنس**" بنبرة لم تخل من قدر من الدهشة :

– وماذا يفعل هناك؟

– يلقي نظرة إلى الكتب على ما أعتقد. ربما لا يزال يجري عملية ترتيبها. أعني أنه ينتهي من ترتيبها. فقالت "**توبنس**" :

– لا يزال هذا يبدو لي مثار دهشة. فقد كان فظًا جداً معنا بشأن هذه الكتب. فقال "**ألبرت**" :

– هكذا هم الرجال. أليس كذلك؟ يحبون الكتب الكبيرة عادة. الكتب العلمية التي يمكنهم الاستغراق في قراءتها. فقالت "**توبنس**" :

– سأذهب وأخرجه من هناك. أين "**هانيبال**"؟

– أعتقد أنه هناك مع السيد.

ولكن "**هانيبال**" ظهر في هذه اللحظة. وبعد أن نبح بالغضب الشرس الذي يليق بكلب حراسة متمرس افترض صواباً أنها سيدته المحبوبة هي التي لابد أن تكون قد عادت من الخارج وليس أحداً قد جاء ليسرق الملاعق أو يعتدي على سيده وسيدته. أسرع يهبط الدرج ولسانه الوردي متدلٍّ خارج فمه وذيله يهتز. قالت "**توبنس**" :

– أمسرور بلقاء أمك؟ أجاب "**هانيبال**" بأنه مسرور جداً لرؤية أمه. قفز عليها بقوة كادت أن تطرحها أرضًا. فقالت "**توبنس**" :

– ترفق. ترفق. لا تعني أن تقتلني .. أليس كذلك؟ أوضح "**هانيبال**" أن الشيء الوحيد الذي يريد أن يفعله هو أن يلتهمها لشدة حبه لها.

– أين السيد؟ أين الوالد؟ هل هو بالطابق الأعلى؟ فهم "**هانيبال**" ما تقول. أسرع إلى أعلى عدد من الدرجات ثم أدار رأسه من فوق كتفه وانتظر حتى تلحق "**توبنس**" به. قالت "**توبنس**" وهي تعاني قدراً طفيفاً من صعوبة التنفس، عندما دخلت حجرة الكتب ورأت "**تومي**" منفرج الساقين بمقدار موضع قدمين، يخرج كتباً ويدخل أخرى:

– ماذا تفعل. ظننت أنك سوف تأخذ "**هانيبال**" للتمشي. فقال "**تومي**":

– لقد تمشينا. ذهبنا إلى فناء الكنيسة.

– ولماذا أخذت "**هانيبال**" إلى فناء الكنيسة؟ أنا واثقة بأنهم لا يحبون وجود الكلاب هناك. فقال "**تومي**":

– كان موثقاً بالمقود. وعلى أية حال لم أكن أنا الذي أخذته إلى هناك بل هو الذي أخذني. بدا أنه يحب فناء الكنيسة. فقالت "**توبنس**":

– آمل ألا يكون قد رتب لأي شيء. فأنت تعلم كيف يحب أن يضع لنفسه نظاماً معيناً. فإذا وضع نظاماً للذهاب إلى فناء الكنيسة في كل يوم فسوف يمثل هذا صعوبة لنا. فقال "**تومي**":

– لقد أظهر ذكاءً خارقاً في الموضوع برمته. فقالت "**توبنس**":

–عندما تقول عنه إنه ذكي فإن ما تعنيه هو أنه عنيد متشبث برأيه. أدار "**هانيبال**" رأسه وأقبل وحكّ أنفه في ربلة ساقها. فقال "**تومي**":

– يريد أن يخبرك بأنه كلب ذكي جداً. أكثر ذكاء مما أظهرته أنت أو أنا حتى الآن. فسألت "**توبنس**":

– وما الذي تعنيه بقولك هذا؟ هنا قال "**تومي**" مغيراً مجرى الحديث:

– هل استمتعت بوقتك؟ فقالت "**توبنس**":

– ليس بدرجة كبيرة. أظهر الناس هناك وداً وكرماً نحوي. وأعتقد أنني سيكون بإمكاني في القريب العاجل ألا أخلط بينهم بقدر كبير كما أفعل حالياً. الأمر صعب جداً في بادئ الأمر لأن الناس يبدون متشابهين، إلى حد ما، يرتدون النوعية ذاتها من الملابس ولا تعلم في بادئ الأمر من هو من. أعني ما

لم تكن هناك واحدة جميلة جدًا أو قبيحة جدًا. وهذا لا يبدو متوقع الحدوث بشكل ملحوظ في الريف. أليس كذلك؟ فقال "**تومي**" :

– أؤكد لك أن "**هانيبال**" وأنا أبدينا ذكاءً نادرًا.

– ظننت أنك ذكرت أن "**هانيبال**" هو من أبدى هذا الذكاء. مدَّ "**تومي**" يده وأخذ كتابًا من الرف الذي أمامه قائلاً :

– "**اختطاف**" . مؤلف آخر للكاتب "**روبرت لويس ستيفنسون**" . لابد أن أحدهم كان شديد الإعجاب بكتابات هذا الأديب : "**السهم الأسود**" و"**اختطاف**" و"**كاتريونا**" وكتابين آخرين حسب اعتقادي. وجميعها مهداة إلى "**ألكسندر باركنسون**" من جدة محبة وأحدها من عمة كريمة. فقالت "**توبنس**" :

– حسنًا. وماذا عن ذلك؟ فقال "**تومي**" :

– وقد عثرت على مقبرته.

– عثرت على ماذا؟

– في الواقع ، إن "**هانيبال**" هو الذي اهتدى إليها. وهي في الزاوية المقابلة لأحد الأبواب الصغيرة المؤدية إلى داخل الكنيسة، أعتقد أنه الباب المؤدي إلى حجرة الاجتماعات بالكنيسة أو شيء من هذا القبيل، كان في الرابعة عشرة عندما توفي. "**ألكسندر ريتشارد باركنسون**" . كان "**هانيبال**" يتشمم (يستروح) المكان هناك. أخرجته منه وتمكنت من قراءة الكتابة التي هناك على الرغم من أنها كانت ممحوة بدرجة كبيرة. قالت "**توبنس**" :

– مسكين ذلك الصغير. وقال "**تومي**" :

– نعم. إنه مؤسف و... فقاطعته "**توبنس**" قائلة :

– بذهنك شيء ما لا أفهمه.

– حسنًا. تساءلت. أعتقد يا "**توبنس**" أنك قد نقلت إليّ العدوى. هذا أسوأ ما بك. عندما يشتد اهتمامك بشيء ما لا تتابعينه بمفردك. بل تنقلي اهتمامك به إلى فرد آخر. فقالت "**توبنس**" :

– لا أفهم ما تعنيه تمامًا.

– تساءلت عما إذا كان ذلك إحدى حالات السبب والأثر.

– ما الذي تعنيه يا "**تومي**"؟

– كنت أتساءل عن "**ألكسندر باركنسون**". الذي تكبد عناءً كبيرًا، وإن لم يكن هناك أدنى شك في أنه كان مستمتعًا تمامًا بما كان يقوم به؛ ليعد شفرة من نوع ما بأحد الكتب. " "**ماري جوردان**" لم تكن وفاتها طبيعية". بافتراض صحة ذلك؟ بافتراض أن "**ماري جوردان**" أيًّا من كانت لم تكن وفاتها طبيعية؟ ألا ترين إذًا أنه ربما الشيء التالي الذي حدث هو وفاة "**ألكسندر**"؟

– لا تعني أن .. لا تعتقد أن .. فقال "**تومي**":

– إنني أتساءل. دفعني هذا إلى أن أتساءل .. في الرابعة عشرة من عمره. لم يكن هناك ذكر لسبب وفاته. لا أفترض أن شيئًا كهذا يكتب على بلاطة المقبرة. كل ما قرأته عليها هو عبارة: "في حضورك ملء الفرح" أو أي شيء من هذا القبيل. لكن .. ربما كانت وفاته بسبب أنه علم شيئًا يمثل خطرًا على شخص آخر؛ لذلك .. لذلك مات. فقالت "**توبنس**":

– تعني أنه قُتل؟ إنك تتصور أمورًا وحسب.

– حسنًا. أنت بدأت به. تصور الأمور أو التساؤل. كلاهما متقاربان. أليس كذلك؟ فقالت "**توبنس**":

– سوف نواصل التساؤل كما أفترض. ولن نتمكن من اكتشاف أي شيء لأن كل هذا حدث منذ سنوات وسنوات. نظر كل منهما إلى الآخر. ثم قال "**تومي**":

– في حوالي التوقيت الذي شغلنا فيه بمحاولة التحقيق في موضوع "**جين فين**" نظر كل منهما إلى الآخر ثانية وقد اتجه تفكيرهما إلى الماضي.

*****

- 6 -
مشاكل

دائمًا ما يعتبر الانتقال إلى منزل جديد، مسبقا، تمرينًا سارًا سوف يستمتع به المنتقلون إلى المسكن الجديد ولكن الأمر لا يكون دائمًا طبقا للمتوقع. فيتعين إعادة فتح أو تعديل قنوات العلاقات بعمال الكهرباء وبالبنائين وبالنجارين وبعمال الطلاء وعمال لصق ورق الحائط وبموردي الثلاجات ومواقد الغاز والتركيبات الكهربائية وعمال التنجيد وصانعي الستائر ولاصقي مشمّع الأرضيات وموردّي الطنافس. فلا يكون لكل يوم المهمة المحددة له فقط. بل عادة ما يكون هناك ما بين أربعة إلى عشرة وافدين آخرين ممن إما طال انتظارهم وإما قد نسي تمامًا أمر قدومهم.

لكن كانت هناك لحظات أعلنت "**توبنس**" فيها - متنهدة بارتياح - عن عدد من إنهاء الأعمال بمختلف المجالات. قالت:

- أعتقد بحق أن مطبخنا قد أصبح مكتملاً تقريبًا الآن. باستثناء أنه لا يمكنني حتى الآن الاهتداء إلى صندوق مناسب للدقيق. فقال "**تومي**":

- وهل لذلك أهمية كبيرة؟

- نعم. إلى حد ما؛ لأننا عادة نشتري الدقيق في أكياس زنة ثلاثة كيلوجرامات ولا تتسع لها هذه النوعية من العلب المتاحة. فهي محدودة الحجم جدًا وشديدة الأناقة. على الواحدة منها وردة جميلة وعلى الأخرى زهرة عباد الشمس ولا تتسع لأكثر من كيلوجرام واحد. غير عملية ألبتة.

وفي لحظات أخرى كانت "**توبنس**" تبدي بعض الملاحظات. قالت:

- "**الغار**". أعتقد أنه اسم سخيف لمنزل. لا أرى سببًا لأن يسمَّى "الغار"؛ ليس به أي من نباتات "الغار". كان من الأفضل لهم تسميته "**أشجار البلانيرة**"؛ فهي ظريفة جدًا. قال "**تومي**":

- لقد قيل لي إنه كان معروفًا - قبل "الغار" - باسم "**لونج سكوفيلد**".

فقالت "**توبنس**" :

– ولا يبدو أن لهذا الاسم معنى أيضًا. فما هو "**سكوفيلد**" ومن الذي عاش فيه آنذاك؟

– آل "**وادنجتون**" .

– بدأت أخلط بين هذه الأسماء. آل "**وادنجتون**"، ثم آل "**جونز**" من باعوه لنا. وقبل ذلك آل "**بلاكمور**"؟ وأعتقد أن آل "**باركنسون**" في فترة ما. عدد كبير منهم. دائمًا ما أواجه مزيدًا منهم.

– تعنين كيف؟ فقالت "**توبنس**" :

– أعتقد أنني دائمًا أسأل، أعني .. إذا أمكنني أن أكتشف شيئًا عن آل "**باركنسون**" فعندئذ يمكننا إحراز تقدم في .. المشكلة التي لدينا.

– يبدو أن هذا ما يصف به المرء كل شيء في هذه الأيام. مشكلة "**ماري جوردان**" . هل هذا ما تعنينه؟

– ليس هذا فقط. فهناك مشكلة آل "**باركنسون**" ومشكلة "**ماري جوردان**" ولابد من أن يكون هناك عدد آخر من المشاكل أيضًا. لم تكن وفاة "**ماري جوردان**" طبيعية. والشيء التالي الذي ذكرته الرسالة كان "إنه واحد منا" . فهل هذا يعني أنه واحد من عائلة "**باركنسون**" أم أنه يعني مجرد فرد كان يعيش بالمنزل؟ لنقل إنه كان بالمنزل فردان إلى ثلاثة أفراد من آل "**باركنسون**" وبعض الأفراد الأكبر سنًا من آل "**باركنسون**" وأناس بأسماء مختلفة ولكنهم خالات أو أبناء أخوات وبنات أخوات لآل "**باركنسون**" وأفترض وجود أشخاص مثل خادمة منزل وخادمة ردهة وطاهية ومربية وربما.. حسنًا، ليست وصيفة؛ فهذا زمن سابق جدًا لاستخدام الوصيفات .. ولكن "واحد منا" لابد أن تعني واحدًا من أهل البيت. وكان أهل البيت أكبر عددًا مما هم عليه الآن. حسنًا. من الممكن أن "**ماري جوردان**" كانت خادمة أو خادمة ردهة أو حتى طاهية. ولماذا يريد أحد لها موتًا وموتًا غير طبيعي؟ ما أعنيه هو أنه لابد أن كان هناك من أراد لها أن تموت وإلا لكان موتها

طبيعيًّا.. أليس كذلك؟ أنا ذاهبة صباح غد لتناول القهوة في مكان آخر.

– يبدو أن ذهابك لتناول القهوة سيكون متكرراً.

– إنه وسيلة جيدة جداً للتعرف إلى الجيران وإلى المقيمين في ذات القرية معنا. وليست هي بالقرية الكبيرة جداً أيضًا. ويتحدث الناس دائمًا عن أقارب من كبار السن أو عن شخصيات كانت معروفة لهم. سوف أحاول وأبدأ بالسيدة "**جريفين**"، التي من الواضح أنها كانت شخصية مهمة في هذه الناحية. يجب أن أقول إنها كانت تحكم الجميع بقضيب من حديد. لقد خدعت القس وخدعت الطبيب وأظن أنها خدعت ممرضة الحي أيضًا والجميع.

– ألن تكون ممرضة الحي ذات فائدة؟

– لا أعتقد ذلك. لقد توفيت. أعني من كانت في زمن آل "**باركنسون**" توفيت. والموجودة حاليًّا لم يمض وقت طويل على مجيئها. ولا اهتمام لديها بالمكان. ولا أعتقد حتى أنها كانت لها معرفة بأحد من آل "**باركنسون**".

قال "**تومي**" باهتمام شديد:

– أتمنى.. كم أتمنى أن ننسى أمر آل "**باركنسون**" كليًّا.

– تعني أنه لن يكون لدينا مشكلة عندئذ؟ فقال "**تومي**":

– يا إلهي!.. مشاكل ثانية. فقالت "**توبنس**":

– إنها "**بياتريس**".

– ومن هي "**بياتريس**"؟

– التي أدخلت لدينا مصطلح المشاكل. الواقع أنها "**أليزابيث**". عاملة النظافة التي عملت لدينا قبل "**بياتريس**". كانت تأتي إليَّ دائمًا وهي تقول: "يا سيدتي، هل لي في أن أتحدث معك دقيقة؟ لديَّ مشكلة". ثم بدأت "**بياتريس**" تحضر إلينا في أيام الخميس ولابد أن تكون قد التقطت منها هذه العدوى. فكانت لديها مشاكل أيضًا. إنه مجرد أسلوب للتعبير عن شيء ما.. لكن دائمًا ما نسميه مشكلة. فقال "**تومي**":

– حسنًا. لنعترف بأنه كذلك. لديك مشكلة .. لديَّ مشكلة. لدى كلينا مشاكل.

تنهد وغادر الحجرة. هبطت "**توبنس**" الدرج ببطءٍ وهي تهز رأسها. أقبل "**هانيبال**" نحوها آملاً يهز ذيله ويتلوَّى أملاً في مجاملات مستقبلة. قالت "**توبنس**" :

– لا يا "**هانيبال**" . لقد تمشيت. لقد حصلت على التمشية الصباحية. أفهمها "**هانيبال**" بأنها مخطئة وبأنه لم يحصل على تمشية. فقالت "**توبنس**" :

– أنت أحد أسوإِ الكذابين بين الكلاب التي عرفتها حتى الآن. لقد ذهبت للتمشي مع أبيك.

بذل "**هانيبال**" محاولته الثانية التي تهدف إلى التأكيد بشتى الطرق الكلابية أنه يمكن لأي كلب أن يحصل على تمشية ثانية لو أن له صاحبًا يمكنه أن يرى الأمور في ذلك الضوء. وإذ خاب ظنه في هذا الجهد الذي بذله هبط الدرج وبدأ يطلق نباحًا عاليًا ويبذل كل جهد ليتظاهر بأنه موشك على أن يعض فتاة شعثاء الشعر تستخدم مكنسة كهربائية، إنه لا يحب المكنسة الكهربائية، واعترض على أن تطيل "**توبنس**" الحديث مع "**بياتريس**" . قالت "**بياتريس**" :

– لا تدعيه يعضني. فقالت "**توبنس**" :

– لن يعضك. إنه يتظاهر بذلك فقط. فقالت "**بياتريس**" :

– أعتقد أنه سيفعل بي ذلك يومًا ما. وبهذه المناسبة يا سيدتي. أتساءل عما إذا كان يمكنني أن أتحدث معك لحظة. فقالت "**توبنس**" :

– تعنين..

– حسنًا يا سيدتي. لديَّ مشكلة. فقالت "**توبنس**" :

– هذا ما توقعته. أي نوع من المشاكل؟ وبهذه المناسبة ... هل تعرفين أية عائلة هنا أو أي فرد عاش هنا ذات مرة .. ملقَّب بـ"**جوردان**" ؟

– "**جـوردان**" .. لا يمكنني أن أجـزم بهـذا. كـان هنا آل "**جـونـســون**" بالتأكيد.. كما كان أحد الكونستبلات يُدعى "**جونسون**". وكذلك أحد رجال البريد. اسمه "**جورج جونسون**". وكان صديقًا لي. ثم قهقهت.

– ألم تسمعي قط عن "**ماري جـوردان**" المتوفاة؟ بدت الحيرة على وجه "**بياتريس**" التي هزت رأسها وعادت إلى سابق طلبها:

– بشأن هذه المشكلة يا سيدتي.

– آه. نعم. مشكلتك.

– أرجو أن تعذريني يا سيدتي إذا سألتك .. فقد وضعتني في موقف محرج، وكما تعلمين، لا أحب.. فقالت "**توبنس**":

– حسنا. إذا أمكنك أن تخبريني على عجل؛ لأنني ذاهبة لتناول القهوة خارج البيت هذا الصباح.

– أي نعم. بمنزل السيدة "**باربر**"، أليس كذلك؟ فقالت "**توبنس**":

– هذا صحيح. والآن ما المشكلة؟

– تتعلق بمعطف. معطف جميل جداً. بمحلات "**سيموندز**" دخلت المتجر وقمت بقياسه وبدا أنيقًا جداً. كانت هناك بقعة صغيرة بالجزء الأسفل منه بالقرب من ثنية الذيل. ولم يبد لذلك أهمية عندي. وعلى أية حال .. حسنًا .. فقالت "**توبنس**":

– ثم ماذا؟

– جعلني هذا أرى لماذا لم يكن المعطف غالي الثمن إلى هذا الحد. اشتريته وكان كل شيء على خير ما يرام عند هذا الحد. لكن عندما وصلت إلى بيتي تبينت أن به ورقة ذكر بها أن ثمنه هو ستة جنيهات إنجليزية وليس 3.70 جنيه إنجليزي. لم أرغب في أن أقبل هذا ولم أعلم ماذا أفعل. عدت إلى المتجر وحملت المعطف معي .. رأيت أنه من الأفضل أن آخذه معي وأقول إنني لم أعن أن آخذه هكذا، ثم الفتاة التي باعته لي .. وهي فتاة ظريفة جداً .. اسمها "**جلاديس**" نعم – لا أعرف ما هو لقبها – ولكنها على أية حال

غضبت جداً وقلت لها: "لا بأس. سأدفع الفرق". وقالت: "لا يمكنك أن تفعلي ذلك لأنه قد تم قيد المبلغ بالدفاتر"، هل تفهمين ما أعنيه؟ فقالت "**توبنس**":

– نعم. أعتقد أني أفهم ما تعنينه.

– وبناء على ذلك قالت: "لا يمكنك أن تفعلي هذا؛ لأنه سوف يسبب لي مشكلة".

– ولماذا يسبب لها مشكلة؟

– حسنا .. هذا ما استشعرته. ما أعني قوله إن المعطف قد بيع لي بمبلغ أقل من ثمنه وقد عدت به إلى المتجر ولم أفهم لماذا من الممكن أن يسبب لها مشكلة. قالت إنه إذا كان قد وقع إهمال كهذا ولم يلحظوا وجود البطاقة المدون عليها الثمن الصحيح وحصلوا مني على ثمن أقل فمن الممكن أن تفصل من عملها لهذا السبب. قالت "**توبنس**":

– لا أعتقد أن شيئًا من هذا من الممكن أن يحدث. أعتقد أنك كنت محقة تماما. ولا أرى ماذا أيضًا يمكنك أن تفعليه.

– حسنا ولكن هذا ما حدث. أثارت زوبعة وكانت قد بدأت تبكي وكل هذا. فأخذت المعطف معي ثانية ولا أدري الآن ما إذا كنت قد خدعت المتجر أو .. لا أدري بحق ماذا ينبغي أن أفعل. قالت "**توبنس**":

– ما أراه بحق هو أنني من كبر السن بحيث لا أدري ما ينبغي فعله في هذه الأيام؛ لأن كل شيء غريب جداً في المتاجر. الأسعار غريبة وكل شيء صعب. لكن لو كنت مكانك وتريدين أن تدفعي مبلغًا إضافيًا فربما يكون من الأفضل أن تعطي هذا المبلغ إلى تلك الفتاة... ما اسمها .. "**جلاديس**" أو شيء كهذا. يمكنها أن تضع المبلغ في درج النقود أو في أي مكان كهذا.

– حسنا. لا أدري ما إذا كنت أريد أن أفعل ذلك لأنه من الممكن أن تأخذ المبلغ لنفسها. أعني أنه لن يكون هذا صعبا. أليس كذلك؟ لأنني أعتقد أنني قد سرقت المبلغ وما كنت لأسرقه في الواقع. أعني.. عندئذ تكون

" **جلاديس** " هي التي سرقته، أليس كذلك؟ ولا أعرف ما إذا كان لي أن أثق بها إلى هذا الحد . يا إلهي! فقالت " **توبنس** " :

– نعم . الحياة صعبة جداً . أليست كذلك؟ إنني آسفة جداً يا " **بياتريس** " ولكنني أرى أنه يجب عليك أن تتخذي قرارك بنفسك في هذا الأمر . إذا كان لا يمكنك أن تثقي بصديقتك .

– ليست صديقتي تماما . أشتري أغراضي من ذلك المتجر فقط . وهي متحدثة ممتعة . ولكن ما أعنيه هو أنها ليست صديقتي بالمعني المفهوم . وأعتقد أنها قد واجهت مشكلة صغيرة في مرة سابقة بالمكان الذي كانت تعمل به . قيل إنها احتفظت لنفسها بثمن شيء باعته . فقالت " **توبنس** " بقدر من الضيق :

– حسناً . في هذه الحالة ما كنت لأفعل أي شيء لو كنت في موقفك .

بدت نبرتها حازمة جداً بحيث استدعت " **هانيبال** " للانضمام إلى المشاورات . نبح بصوت عالٍ على " **بياتريس** " ثم اتخذ قفزة عدو على المكنسة التي كان يعتبرها أحد أعدائه الرئيسيين . قال " **هانيبال** " :

– لا ثقة لي بهذه المكنسة وأتمنى لو أنني أوسعها عضًا . قالت " **توبنس** " :

– اهدأ يا " **هانيبال** " وكف عن النباح . ولا تعض شيئًا ولا أحداً . لقد تأخرت عن موعدي جداً . ثم أسرعت إلى خارج المنزل .

قالت " **توبنس** " محدثة نفسها بينما كانت تهبط التل وتسير بمحاذاة طريق البستان : " مشاكل " .

تساءلت في أثناء سيرها – كما فعلت من قبل – عما إذا كان هناك بستان في أي وقت سابق ملحق بأي من المنازل . بدا ذلك غير محتمل في هذه الأيام . استقبلتها السيدة " **باربر** " بسرور عميق . قدمت لها بعضاً من الحلوى الإصبعية اللذيذة المذاق جداً . قالت " **توبنس** " :

– يا لها من حلوى رائعة! هل اشتريتها من محلات " **بيتر باي** " ؟ كانت محلات " **بيتر باي** " هي حلواني المنطقة .

– لا، هذه من صنع عمتي. إنها مدهشة. تصنع أشياء رائعة. فقالت "**توبنس**" :

– هذه الحلوى صعبة الصنع جدًّا لم أتمكن من أن أحقق نجاحًا فيها قط.

– هذا لأنه ينبغي أن تحضري نوعًا معينًا من الدقيق. أعتقد أن هذا هو سر النجاح. تناولت السيدتان القهوة وهما تتحدثان عن مصاعب إعداد أنواع معينة من المخبوزات المنزلية.

– تحدثت السيدة "**بولاند**" عنك في ذلك اليوم يا سيدة "**بيريسفورد**". فقالت "**توبنس**" :

– حقيقة؟ "**بولاند**"؟

– تعيش بالقرب من مقر القسّ. وعائلتها تعيش هنا منذ زمن بعيد. أخبرتنا يومًا ما بأنها أتت إلى هنا وعاشت عندما كانت طفلة صغيرة. وقالت إنها اعتادت أن تتطلع إلى المجيء إلى هنا؛ لأنه كان بالحديقة نوع مدهش من عنب الثعلب. وأشجار خوخ أخضر أيضًا، وهو من الأنواع التي قد لا ترينها أبدًا في هذه الأيام. ليست الأنواع الأصلية منه. فهناك الخوخ العادي أو شيء قريب منه لكن ليس له ذات المذاق.

تحدثت السيدتان عن بعض أنواع الفاكهة التي لم يصبح لها ذات المذاق الذي تذكرتاه من أيام طفولتهما. قالت "**توبنس**" :

– كان لعم والدتي أشجار خوخ أخضر. سألت السيدة "**باربر**" :

– هل كان أحد الكهنة في "**أنتشستر**"؟ كان الكاهن "**أندرسون**" يعيش هنا مع شقيقته. أعتقد ذلك. كانت حادثة مؤلمة. كانت تأكل الكعكة البزرية ذات يوم وضلت إحدى البزور طريقها الصحيح: شيء من هذا القبيل. اختنقت واختنقت واختنقت حتى ماتت. شيء مؤسف جدًّا. أليس كذلك؟ شيء مؤسف للغاية. لقد توفيت إحدى بنات عمومتي مختنقة بقطعة من لحم الضأن. أمر سهل جدًّا على حد اعتقادي وهناك أناس يموتون بالفواق؛ لأنه لا يمكنهم التوقف، ولأنهم لا يعلمون أن العلاج الوحيد للفواق هو بكبح الأنفاس لفترة قصيرة.

- 7 -

مزيد من المشاكل

- أتسمحين لي بالحديث معك لحظة يا سيدتي؟ فقالت "**توبنس**" :

- يا إلهي! أرجو ألا تكون هناك مشاكل أخرى.

كانت تهبط الدرج قادمة من حجرة الكتب، تنفض الغبار عن نفسها؛ لأنها كانت ترتدي بعض أفضل ثيابها والتي كانت تفكر في إضافة قبعة ريش إليها ثم تغادر البيت لتتوجه لتناول الشاي بناء على دعوة صديقة جديدة لها، كانت قد التقت بها في متجر بيع الأدوات المستغنى عنها. شعرت بأن ليس لديها أدنى استعداد لأن تصغي إلى مزيد من الصعاب التي تواجه "**بياتريس**" :

- لا. لا. ليست مشكلة بالتحديد. إنه شيء ظننت أنك قد تحبين معرفته. فقالت "**توبنس**" ولم يزل يراودها إحساس بأن ما تتحدث عنه قد يكون مشكلة أخرى مقنَّعة، هبطت الدرج بحذر:

- إنني في عجلة من أمري لأنني مضطرة إلى الخروج للحاق بموعد الشاي.

- حسنا. يتعلق الأمر بشخصية سألت عنها كما يبدو. كان اسمها "**ماري جوردان**" هل هذا صحيح؟ ظن البعض أن الاسم الصحيح هو "**ماري جونسون**". كانت هناك فتاة اسمها "**بيلندا جونسون**" وكانت تعمل بمكتب البريد. ولكنٍ هذا منذ زمن بعيد. فقالت "**توبنس**" :

- وكان هناك أيضًا رجل شرطة ملقّب بـ"**جونسون**" - هكذا أخبرني أحدهم.

- نعم. على أية حال أخبرتني صديقتي واسمها "**جويندا**"، لها محل بيع أظرف وبطاقات قذرة وأشياء أخرى وبعض الأواني الصيني على الجانب الآخر من مكتب البريد. و.. فقاطعتها "**توبنس**" قائلة:

- أعلم أنه محل السيدة "**جاريسون**" أو شيء كهذا.

– نعم. لكن ليست السيدة "**جاريسون**" هي التي تديره الآن. امرأة ذات اسم مختلف تماماً. لكن على أية حال، صديقتي "**جويندا**" هذه رأت أنه قد يهمك أن تعرفي؛ لأنها تقول إنها قد سمعت عن "**ماري جوردان**" التي كانت تعيش هنا منذ زمن بعيد. منذ زمن بعيد جداً. كانت تعيش هنا في هذا المنزل.. هذا ما أعنيه.

– كانت تعيش هنا في "**الغار**"؟

– لم يكن اسمه هكذا عندئذ. وأخبرتني بأنها سمعت شيئًا بشأنها؛ لهذا رأت أنه قد يهمك أن تعرفيه. هناك قصة حزينة عنها. وقع لها حادث أو شيء من هذا القبيل. وتوفيت على أية حال.

– تعنين أنها كانت تعيش في هذا البيت عندما توفيت؟ هل كانت فرداً في الأسرة؟

– لا. أعتقد أن لقب الأسرة كان "**باركر**" أو اسمًا كهذا. كان هناك عدد كبير ممن يلقبون بـ"**باركر**". آل "**باركر**" أو آل "**باركنسون**". شيء من هذا القبيل. أعتقد أنها كانت مقيمة هنا وحسب. أعتقد أن السيدة "**جريفين**" على علم بهذا الموضوع. هل تعرفين السيدة "**جريفين**"؟ فقالت "**توبنس**":

– معرفة سطحية فقط. في الواقع إنني سأتناول الشاي بمنزلها بعد ظهر هذا اليوم. تحدثت معها منذ أيام في مزاد بيع السلع المستغنى عنها. ولم أكن قد التقيت بها من قبل.

– هي سيدة طاعنة في السن جداً. أكبر سنًّا مما تبدو عليه. ولكنني أعتقد أنها تتمتع بذاكرة قوية جداً. أعتقد أن أحد صبية عائلة "**باركنسون**" كان ابنها بالمعمودية.

– ماذا كان اسمه؟

– أعتقد أنه "**أليك**". اسم كهذا. "**أليك**" أو "**أليكس**".

– ماذا حدث له؟ هل كبر – ورحل من هنا – وأصبح جنديًّا أو بحاراً أو شيئًا كهذا؟

– آه. لا. تُوفي. نعم. أعتقد أنه دفن هنا بأحد هذه الأشياء .. التي لم يكن الناس يعلمون عنها الكثير. أحد هذه الأمراض التي لها اسم مثل أسماء الناس.

– تعنين أنه مرض منسوب إلى أحد الأشخاص؟

– تعنين مرض "**هودجكين**" أو مثال ذلك.. لا، كان له اسم بشري من نوع ما. لا أعلم ولكنهم يقولون إن لون دم الإنسان يتحول إلى لون مختلف أو شيء كهذا. أعتقد أنه في هذه الأيام يأخذون الدم من الشخص المريض وينقلون إليه دمًا آخر صحيحًا أو شيئًا من هذا القبيل. لكن مع ذلك يموت المريض عادة كما يقولون. السيدة "**بيلينج**" – صاحبة محل الكعك – كانت لها ابنة توفيت بهذا المرض وكانت في السابعة من عمرها فقط. يقولون إن هذا المرض يقتل الأطفال في سن مبكرة جدًّا. قالت "**تابينس**" مقترحة:

– اللوكيميا (ابيضاض الدم)؟

– آه. نعم. أنت تعرفينه. نعم. هذا هو اسمه. أنا متأكدة. ولكنهم يقولون إنه سوف يكون له علاج في يوم ما. تمامًا كما يحقنون الناس الآن بالأمصال وبعلاج التيفود وما إلى ذلك. قالت "**توبنس**":

– حسنا. أمر مثير للاهتمام. ذلك الولد الصغير المسكين.

– لا. لم يكن صغيرًا جدًّا. كان ملتحقًا بمدرسة في مكان ما .. أظن ذلك. لابد أنه كان في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة. قالت "**توبنس**":

– حسنًا. موضوع حزين جدًّا. توقفت قليلاً ثم استطردت تقول:

– يا إلهي! كم تأخرت. لابد أن أسرع بالرحيل.

– يمكنني أن أقول إن السيدة "**جريفين**" يمكنها أن تخبرك ببعض الأشياء. لا أعني أشياء مما تتذكره هي، ولكنها نشأت هنا منذ طفولتها وسمعت الكثير. وتخبر الناس بالكثير – أحيانًا – عن بعض العائلات التي عاشت هنا من قبل. بعض ما تقوله يعد من الفضائح أيضًا. تعلمين مثل هذه الأمور. كان ذلك – بالتأكيد – فيما يعرفونه بالأزمنة الإدواردية أو الأزمنة

الفيكتورية. لا أعلم أيهما .. يخيل إليَّ أن ذلك كان في العصر الفيكتوري؛ لأنها كانت لا تزال على قيد الحياة .. تلك الملكة العجوز. بذلك لابد أن كان ذلك في العصر الفيكتوري. يتحدثون على أنه في العصر الإدواردي وعن شيء ما يعرف باسم "**جماعة منزل مارلبورو**" .. المجتمع الراقي .. أليس كذلك؟ فقالت "**توبنس**":

– نعم. نعم. المجتمع الراقي. قالت "**بياتريس**" بقدر من الاتقاد:

– والأحداث.. فقالت "**توبنس**":

– أحداث كثيرة. قالت "**بياتريس**" غير راغبة في أن تترك سيدتها تمضي وهناك شيء مثير للاهتمام من الممكن أن يقال:

– والفتيات الصغيرات يفعلن ما لا يجب أن يفعلنه. فقالت "**توبنس**":

– لا. أعتقد أن الفتيات عشن حياة النقاء والاستقامة وتزوجن في سن مبكرة وإن كانت زيجاتهن دائماً في الأسر النبيلة. فقالت "**بياتريس**":

– يا إلهي! كم كن محظوظات! الكثير من الملابس الجميلة والذهاب إلى السباقات وحفلات الرقص وكل هذا. فقالت "**توبنس**":

– نعم. الكثير من قاعات الرقص.

– حسنا. عرفت واحدة ذات مرة كانت جدتها خادمة في أحد هذه البيوت الراقية، وأمير "**ويلز**" .. الذي كان أميراً لـ"**ويلز**" آنذاك والذي أصبح فيما بعد الملك "**إدوارد السابع**" .. ذلك الرجل الذي كان أميراً، كان هناك وكان ظريفًا جداً. كان ظريفًا جداً مع جميع الخدم وكل شيء آخر. وعندما رحلت أخذت معها قطعة الصابون التي كان يستخدمها في غسل يديه واحتفظت بها. وكانت ترينا إياها ونحن بعد أطفال. فقالت "**توبنس**":

– أمر مفرح لك جداً. لابد أنها كانت أوقاتاً مثيرة جداً. وربما يكون قد أقام هنا في منزل "**الغار**".

– لا. لا أعتقد أنني سمعت عن ذلك أبداً. كنت سأسمع عنه. لا. لم يكن هنا سوى آل "**باركنسون**". لا كونتيسات ولا ماركيزات ولا لوردات ولا

سيدات ذوات سلطان أو إقطاعيات. أعتقد أن الجزء الأكبر من عمل آل "**باركنسون**" كان في التجارة. كانوا واسعي الثراء وكل هذا ولكن مع ذلك لم يكن هناك شيء مثير في التجارة. أليس كذلك؟ قالت "**توبنس**":

– هذا متوقف على نوعية العمل. ثم أضافت:

– أعتقد أنه ينبغي..

– نعم يا سيدتي. من الأفضل أن تذهبي.

– حسناً. أشكرك جزيل الشكر. لا أرى ضرورة لأن أرتدي قبعة. شعري غير مرتب ألبتة.

– لقد وضعت رأسك في الركن الذي به خيوط العنكبوت. سوف أقوم بتنظيفه تحسباً لأن تفعلي هذا ثانية. أسرعت "**توبنس**" تهبط الدرج. قالت محدثة نفسها: "أتصور أن "**ألكسندر**" هبط هذا الدرج مرات عديدة. وكان يعلم أنه "واحد منا". إنني لأتساءل. أتساءل الآن أكثر من أي وقت مضى".

*****

- 8 -
السيدة "جريفين"

قالت السيدة "**جريفين**" وهي تصب الشاي:

- إنني لمسرورة جداً أنك جئت أنت وزوجك لتعيشا هنا يا سيدة "**بيريسفورد**". سكر؟ حليب (لبن)؟ وقدمت طبق شطائر تناولت "**توبنس**" منه ما أرادت.

- هناك فرق كبير هنا في الريف أن يكون للمرء جيران ظرفاء له شيء مشترك معهم. هل عرفت هذه البقعة من العالم من قبل؟ فقالت "**توبنس**":

- أبداً. كان علينا أن نعاين عدداً كبيراً من المنازل المختلفة.. أرسلت إلينا تفاصيلها عن طريق وكلاء عقاريين. كان العدد الأكبر منها مفزعاً. كان أحدها باسم "**المملوء بسحر العالم القديم**". قالت السيدة "**جريفين**":

- أعلم. أعلم تماما. سحر العالم القديم عادة ما يعني أنك مضطرة إلى وضع سقف جديد وأن الرطوبة غير محتملة. وأعلم أيضاً ما يعنيه وصف "مجدد بالكامل". الكثير من الأدوات التي لا يحتاج إليها المرء، وعادة ما يكون المشهد من نوافذ تلك المنازل المرعبة سيئاً للغاية. لكن "**الغار**" منزل رائع. وإن كنت أتوقع أن تكونوا قد قمتم بالكثير حتى تجعلوه صالحاً للسكنى. هذا ما فعله جميع من شغلوه كل بدوره. قالت "**توبنس**":

- أفترض أن عدداً كبيراً من أناس مختلفين أقاموا به.

- نعم. يبدو أن أحداً لا يقيم طويلاً بمكان واحد في هذه الأيام. أليس كذلك؟ آل "**كشبرتسنز**" وآل "**ردلاند**" أقاموا به ومن قبلهم آل "**سومر**" وبعدهم آل "**جونز**". قالت "**توبنس**":

- تساءلنا قليلاً لماذا أطلق عليه اسم "**الغار**".

- كان هذا الاسم من النوعية التي كان الناس يحبون إطلاقها على المنازل. إذا رجعت بالزمن إلى الوراء بما يكفي - ربما إلى زمن آل "**باركنسون**" -

أعتقد أنه كانت به نباتات "الغار" . ربما كان هناك ممر ملتف بالحديقة غرس به قدر كبير من نباتات "الغار" بما فيها الأنواع الرقشاء. لم أحب الأنواع الرقشاء قط . فقالت "**توبنس**" :

– وأنا أيضاً أتفق معك في ذلك. لا أحبها. ثم أضافت:

– يبدو أنه كان هنا عدد كبير من أفراد عائلة "**باركنسون**" .

– نعم. وأعتقد أنهم قد شغلوا المنزل أكثر من أية عائلة أخرى.

– لا يبدو أن أحداً باستطاعته أن يخبر الكثير عنهم.

– حسنا. كان هذا منذ زمن طويل مضى يا عزيزتي. وبعد الـ .. حسناً، أعتقد أنه بعد الـ .. تلك المشكلة، وكان هناك شعور عام بشأنها، ومن المؤكد أن لا عجب في أنهم قاموا ببيع المنزل. تحينت "**توبنس**" الفرصة وسألت:

– كانت للمنزل سمعة سيئة أو شيء كهذا؟ هل ما تعنينه أنه من المفترض أن المنزل كان غير صحي أو شيئًا من هذا القبيل؟

– لا. ليس المنزل في الواقع بل الناس. كانت هناك فضيحة إلى حد ما... كان ذلك أثناء الحرب العالمية الأولى. لم يستطع أحد أن يصدق ما حدث. كانت جدتي تتحدث عنها وتقول إنها ذات صلة بأسرار بحرية .. عن غواصة جديدة. وكانت تعيش مع عائلة "**باركنسون**" فتاة قيل إنها متورطة في هذا الموضوع. سألت "**توبنس**" :

– هل هي "**ماري جوردان**" ؟

– نعم. نعم. أصبت تماماً. وفيما بعد ارتابوا في أن هذا هو اسمها الحقيقي. أعتقد أن هناك من ارتاب فيها فترة من الزمن. ارتاب فيها الصبي "**ألكسندر**" . ولد ظريف وحاد الذكاء أيضاً.

*****

الجزء الثاني

- 9 -

منذ زمن بعيد

وقفت "**توبنس**" تنتقي بطاقات عيد ميلاد بعد ظهيرة يوم ممطر كاد مكتب البريد فيه أن يكون خاليًا تمامًا. وضع الناس الخطابات بداخل صندوق البريد خارج المكتب أو أسرعوا بين حين وآخر إلى داخل المكتب لشراء طوابع بريد، وعادة ما كانوا يغادرون مسرعين للوصول إلى بيوتهم بأسرع ما يمكنهم. لم يكن بعد ظهر ذلك اليوم واحداً من أيام التسوّق الكثيف في ذلك الوقت. رأت "**توبنس**" أنها قد أحسنت اختيار هذا اليوم تحديداً تماماً.

سرّت "**جويندا**"، التي أمكن "**توبنس**" التعرف إليها بسهولة على ضوء وصف "**بياتريس**" إياها، أن تأتي لمساعدتها. كانت "**جويندا**" تمثل جانب المشتريات المنزلية بمكتب البريد. كانت هذه المرأة الرمادية الشعر تهيمن على الأعمال الحكومية المتعلقة ببريد صاحبة الجلالة الملكة. كانت "**جويندا**" – تلك المرأة المتكلمة الشديدة الاهتمام بالقادمين الجدد إلى القرية – سعيدة وسط بطاقات أعياد الميلاد وأعياد الحب وعيد الميلاد والبطاقات البريديةالمضحكة وأوراق الكتابة والأدوات المكتبية ومختلف أنواع الشوكولاتة والأدوات الصينية المنزلية بمختلف أنواعها وأشكالها. ارتبطت فوراً بعلاقة ودية بـ"**توبنس**".

– إنني سعيدة بأن هذا المنزل قد فتح ثانية. أعني "مستجم الأمراء".

– ظننت أنه كان اسمه "**الغار**" دائماً.

– لا. لا أعتقد أنه سمي بذلك أبداً. تتغير أسماء المنازل كثيراً في هذه المنطقة. يحب الناس أن يطلقوا عليها أسماء جديدة. فقالت "**توبنس**" مفكرة:

– من المؤكد أن الأمر يبدو كذلك. حتى نحن فكرنا في اسم آخر أو اثنين. بهذه المناسبة .. أخبرتني "**بياتريس**" بأنك قد عرفت فتاة كانت تعيش هنا اسمها "**ماري جوردان**" .

– لم أعرفها ولكنني سمعت عنها. كان ذلك أثناء الحرب. ليست الحرب الأخيرة. الحرب السابقة بزمن طويل التي استخدمت فيها الطائرات الزبلين. فقالت "**توبنس**" :

– أتذكر أنني قد سمعت عن الطائرات الزبلين.

– لقد حلَّقت فوق "**لندن**" في عام ألف وتسعمائة وخمسة عشر أو ألف وتسعمائة وستة عشر.

– أتذكر أنني ذهبت إلى مخازن الجيش والبحرية ذات يوم مع عمة أمي العجوز وأطلقت صفارات الإنذار.

– كانت تأتي ليلاً في بعض الأحيان، أليس كذلك؟ لابد أنها كانت مخيفة جدًا. فقالت "**توبنس**" :

– لا أعتقد أنها كانت كذلك بحق. كان الناس ينفعلون. ولكنها لم تكن مخيفة بقدر القنابل الطيارة... في هذه الحرب الأخيرة، التي كانت تشعر المرء وكأنها تتعقبه حيث ذهب. تتعقبه في الشارع أو شيء من هذا القبيل.

– كنتم تقضون الليالي كلها في الأنفاق. أليس كذلك؟ كانت لي صديقة في "**لندن**" . كانت تقضي جميع الليالي بالأنفاق. بشارع "**وارين**" . طبقًا لذاكرتي. كان لكل فرد محطة نفق محددة. فقالت "**توبنس**" :

– لم يكن هذا متَّبعًا في "**لندن**" في الحرب الأخيرة. لا أظن أنني كنت سأحب أن أقضي الليل كله في نفق.

– حسنا. صديقتي هذه واسمها "**جيني**" كانت تحب الأنفاق. ذكرت أنها كانت ممتعة جدًا. كان لكل فرد درجة محددة بالنفق. وكانت تحفظ له بصفة دائمة. ينام عليها ويحمل إليها الشطائر والأشياء ويستمتع بوقته مع الآخرين ويتحدث معهم. كانت هذه الأمور تجري طوال الليل بلا توقف. شيء

مدهش. وحركة القطارات مستمرة حتى الصباح. أخبرتني بأنه لم يمكنها احتمال الحياة بعد انتهاء الحرب واضطرارها إلى العودة إلى بيتها. أحسست بأن الحياة مملة. فقالت "**توبنس**":

– على أية حال لم تكن هناك قنابل طيارة في عام ألف وتسعمائة وأربعة عشر. الطائرات الزبلين فقط. بدا واضحاً أن "**جويندا**" قد فقدت اهتمامها بالطائرات الزبلين؛ لهذا قالت "**توبنس**":

– كنت أسأل عن فتاة تدعى "**ماري جوردان**". أخبرتني "**بياتريس**" بأنك تعلمين شيئًا عنها.

– ليس بالضبط. فقد سمعت اسمها يذكر مرة أو اثنتين وكان هذا منذ زمن طويل. قالت جدتي إن شعرها كان ذهبيًا جميلاً، وإنها كانت ألمانية – إحدى تلك الفتيات الألمانيات – وإنها كانت معنية برعاية الأطفال أي مربية. كانت تعمل لدى إحدى أسر البحارة في مكان ما. أعتقد أن ذلك كان في "**اسكتلندا**". وأتت إلى هنا بعد ذلك. التحقت بأسرة تدعى آل "**بارك**" أو آل "**بيركين**". كانت تحصل على يوم إجازة أسبوعية وتذهب إلى "**لندن**" وهناك كانت تأخذ تلك الأشياء، أيًا كانت. قالت "**توبنس**":

– أي نوع من الأشياء؟

– لا أعلم. لم يذكر أي أحد عنها شيئًا. أعتقد أنها الأشياء التي كانت تسرقها.

– هل ضبطت تسرق؟

– لا. لا أعتقد ذلك. كانوا قد بدؤوا يشكّون فيها ولكنها مرضت وتوفيت قبل ذلك.

– بماذا توفيت؟ هل توفيت هنا؟ هل نقلت إلى المستشفى؟

– لا. لا أعتقد أنه كان هناك مستشفى يمكن الذهاب إليه آنذاك. لم تكن هناك خدمات اجتماعية في تلك الأيام. أخبرني أحدهم بأن هذا كان بسبب خطإٍ سخيف اقترفته الطاهية. أتت بأوراق قفاز الثعلب إلى داخل المنزل بطريق

الخطإ ظنًّا منها أنها سبانخ .. أو ربما خس. لا. أظن أنه شخص آخر. أخبرني بأنه حشيشة عنب الثعلب القاتلة. ولكنني لا أصدق ذلك ولا للحظة واحدة- أعني لأن الجميع يعرف هذه الحشيشة القاتلة. وهي نوع من العليق على أية حال. أعتقد أنها كانت أوراق قفاز الثعلب تلك التي أحضرت من الحديقة بطريق الخطإ. قفاز الثعلب هو الـ"**الدايجوكسو**" أو اسم آخر مثل الأصابع .. يحتوي على مادة قاتلة .. حضر الطبيب وفعل ما أمكنه لكن أعتقد أن فرصة الإنقاذ كانت قد فاتت.

– هل كان بالمنزل أفراد كثيرون عندما حدث هذا؟

– عدد كبير منهم وفقًا لظني؛ لأنه كان هناك دائمًا أناس باقون به – هكذا سمعت، وأطفال وأناس يقضون عطلة نهاية الأسبوع ومربية أطفال ومعلِّمة، وحفلات. أود أن أذكرك بأنني لا أعلم كل هذا بنفسي وأن جدتي هي التي كانت تحكي لي. والسيد "**بودليكوت**" يتحدث عن هذا الموضوع من آن إلى آخر. ذلك البستاني العجوز الذي كان يلتحق بالعمل هنا من آن إلى آخر. كان يعمل لديهم. وقد لاموه في بادئ الأمر على أنه قد أرسل أوراق النباتات الخطإ لكن لم يكن هو الذي فعل ذلك. بل كان شخص ما خرج من المنزل وأراد أن يساعد فقطف الخضراوات من الحديقة وحملها إلى الطاهية. تعرفين السبانخ والخس ومثل هذه الأشياء .. وأعتقد أنهم قد وقعوا في خطإ عدم معرفة الكثير عن زراعة الخضراوات. أعتقد أنهم قد ذكروا في التحقيق الذي أجري بعد ذلك أنه خطأ من الممكن أن يقع فيه أي إنسان؛ لأن السبانخ أو أوراق الحماض كانت مزروعة بجانب ذلك الشيء. وبهذا أفترض أنهم قد قطفوا قدرًا من أوراق كلا النباتين معا. على أية حال كان الحادث مأسويًّا جدًّا؛ لأن جدتي ذكرت أنها كانت فتاة جميلة جدًّا ذات شعر ذهبي رائع.

– وكانت معتادة الذهاب إلى "**لندن**" كل أسبوع؟ من الطبيعي أن تحصل على يوم إجازة.

– نعم. قالت إن لها أصدقاء هناك. كانت أجنبية .. كما قالت جدتي وقد

ذهب البعض إلى أنها كانت جاسوسة ألمانية.

– وهل كانت كذلك؟

– لا أعتقد ذلك. أعجب الرجال بها على ما يبدو. ضباط البحرية والآخرون العاملون بالمعسكر الحربي أيضًا. كان لها أصدقاء هناك .. بالمعسكر الحربي.

– وهل كانت جاسوسة حقا؟

– لا أعتقد ذلك. أعني أن جدتي قالت إن هذا ما كان الناس يقولونه عنها، لم يكن هذا في الحرب الأخيرة. بل قبل ذلك بزمن طويل. فقالت "**توبنس**" :

– كم هو غريب أن يختلط الأمر بشأن الحروب. رجلاً مسنًا كان له صديق شارك في معركة "**واترلو**".

– آه. تصوري ذلك. أعوام سابقة على عام ألف وتسعمائة وأربعة عشر. كان الناس يستقدمون مربيات أجنبيات. يسمون الواحدة منهن مدموازيل أو فراولاين أيًا كان ما تعنيه هذه الألقاب. ذكرت جدتي أنها كانت ظريفة جداً مع الأطفال. وكان الجميع مسرورين منها وأحبها الجميع.

– كان هذا عندما كانت تقيم هنا في "**الغار**"؟ قالت "**جويندا**" :

– لم يكن هذا هو اسمه آنذاك .. على الأقل لا أعتقد ذلك. كانت تقيم مع آل "**باركنسون**" أو آل "**بيركين**". اسم كهذا. ما نعرفه الآن بالوصيفة. أتت من بلد منشأ الفطائر الصغيرة التي تصنعها الآن محلات "**فورتنم**" و"**ميسون**" تلك الفطائر الغالية الخاصة بالحفلات. النصف ألماني والنصف فرنسي .. هكذا أخبرني أحدهم. فسألت "**توبنس**" :

– "**ستراسبرج**"؟

– نعم، هذا هو اسمه. وكانت ترسم اللوحات. رسمت صورة لإحدى خالات والدتي، بدت فيها عجوزاً جداً .. هكذا كانت تقول دائماً. ورسمت صورة لأحد أبناء آل "**باركنسون**". لا تزال السيدة "**جريفين**" محتفظة بها. وقد اكتشف هذا الصبي شيئًا ما عنها، على ما أعتقد .. أعني ذلك الصبي

الذي رسمت صورته .. وأعتقد أنه كان ابنا بالمعمودية للسيدة "**جريفين**" .

– هل هذا هو "**ألكسندر باركنسون**" ؟

– نعم. هو. المدفون بجوار الكنيسة.

*****

- 10 -

التعرُّف إلى "ماتيلدا" و"الحب الصادق" و "K K"

خرجت "**توبنس**" في صباح اليوم التالي تبحث عن الشخصية العامة المشهورة بالقرية المعروفة عادة باسم "**إيزاك**" أو المعروفة في المناسبات الرسمية، إذا تمكن أحد من أن يتذكر، باسم السيد "**بودليكوت**"، كان "**إيزاك بودليكوت**" أحد الشخصيات المحلية المشهورة. كان أحد هذه الشخصيات بسبب سنِّه - إذ كان يدَّعي أنه في التسعين من العمر (ولم يصدق ذلك كثيرون) - وبسبب قدرته على إجراء إصلاحات متباينة عديدة. إذا قوبلت جهودك في الاتصال بالسباك بلا إجابة يمكنك اللجوء إلى "**إيزاك بودليكوت**" العجوز. فبغض النظر عما إذا كان هذا الرجل مؤهلاً - بأية درجة- للقيام بالإصلاحات التي كان يجريها إلا أنه كان مطلعا مدى سنوات عديدة من عمره المديد على جميع أنواع مشاكل الأعمال الصحية ومشاكل مياه الحمامات ومشاكل مسخنات الماء ومختلف مشاكل الكهرباء بالناحية. وكانت أتعابه تضارع ما يتقاضاه سبّاك مؤهل أما إصلاحاته فكانت عادة ناجحة بدرجة مذهلة. كان يمكنه القيام بأعمال النجارة وإصلاح الأقفال وتعليق الصور - لكن بدرجة غير مستوية في بعض الأحيان - وكان يفهم كيفية إصلاح يايات المقاعد المجنحة المهملة. وكان العيب الوحيد في اهتمامات السيد "**بودليكوت**"، هو اعتياده الثرثرة المتواصلة التي لا عائق لها سوى صعوبة في ضبط تركيبة أسنانه الاصطناعية بحيث تجعل نطقه لما يقوله مفهومًا. بدا أن ذكرياته عن قاطني هذه المنطقة السابقين غير محدودة. وكان من الصعب - عموما - معرفة مدى إمكان الاعتماد عليها. وما كان السيد "**بودليكوت**" ليتردد في أن يهب نفسه متعة إعادة رواية قصة مثيرة عن الأيام الماضية. وكانت هذه الانطلاقات الخيالية، التي عادة ما كان يزعم أنها انطلاقات تذكرية، تأتي دائمًا بالنوعية ذاتها من المقدمات:

– سوف تدهش – إنني واثق بذلك – لو أنني أخبرتك بما أعرفه عن هذا الفرد. هذا حقيقي. حسنا. ظن الجميع أنهم يعرفون كل شيء عن الموضوع ولكنهم مخطئون. مخطئون تماما. كانت تلك هي الأخت الكبرى – كما تعلم. نعم. كانت كذلك. بدت جميلة جداً. وكان كلب القصاب هو الذي أوحى إليهم بحل اللغز. تبعها إلى البيت. نعم. هذا ما حدث. نعم ولكنها لم تذهب إلى بيتها هي – كما يمكن القول. آه. حسنا. يمكنني أن أخبرك بالكثير جداً عن ذلك الموضوع. ثم كانت هناك السيدة "**أتكينز**" العجوز. لم يكن أحد يعلم بأنها تحتفظ بمسدس في بيتها. ولكنني كنت أعرف ذلك. عرفت عندما أرسلتني لإصلاح خزانة ملابسها. هكذا كانوا يسمون الصناديق المرتفعة. أليس كذلك؟ نعم. خزائن الملابس. حسنا. هذا صحيح. وكانت هناك في الخامسة والسبعين من العمر. وفي ذلك الدرج، درج الخزانة عندما ذهبت لإصلاح العطب .. كانت المفصلات قد تلفت والقفل أيضا .. هناك كان المسدس. وكان مغلفا مع زوج من الأحذية النسائية. مقاس ثلاثة. أو ... إنني غير واثق بأنه لم يكن مقاس اثنين. من الساتان الأبيض. قدم صغيرة جداً. كان هذا حذاء زفاف جدة والدتها. هكذا أخبرتني. ربما كان هذا صحيحا. ولكن أحدهم أخبرني بأنها اشترته من أحد محلات التحف والأشياء النادرة ذات مرة. لكن لا علم لي بذلك. وكان المسدس مغلفا معه أيضا. نعم، قيل إن ابنها قد أعاده من شرق "**إفريقيا**". نعم. كان هناك يصطاد الفيلة أو شيئا كهذا. وعندما عاد أحضر معه هذا المسدس. وهل تعلم ماذا اعتادت هذه السيدة العجوز أن تفعل؟ علّمها ابنها كيف تصوب وتطلق النار. فكانت تجلس بجوار نافذة حجرة الاستقبال ببيتها وتطل منها وعندما يقترب الناس من الممر – وكانت تحتفظ بالمسدس معها – كانت تطلق الرصاص على كلا الجانبين منهم. كانت تخيفهم حتى الموت فيهربون. كانت تقول إنها لا تقبل أن يقترب أحد من المنزل ويزعج العصافير. كانت مهتمة بالعصافير

جداً. نعم هكذا كانت. ولعلمك الخاص لم تقم باصطياد أي طائر قط. لا. لم تكن لديها رغبة في ذلك. ثم كانت هناك كل تلك الروايات عن السيدة "**ليذربي**" كادت أن يقبض عليها. نعم. كانت سارقة معروضات من المتاجر هكذا يقال عنها. وأنها كانت غالية الثمن جداً.

بعدما أقنعت "**توبنس**" السيد "**بودليكوت**" باستبدال المنور بالحمام تساءلت عما إذا كان يمكنها تحويل مجرى الحوار إلى أية ذكريات ماضية من الممكن أن تفيدها هي و"**تومي**" في حل لغز إخفاء كنز ما أو سر مثير للاهتمام، لا يعلمان عن حقيقة طبيعته أي شيء، في منزلهما.

لم يُبد السيد "**إيزاك بودليكوت**" أية صعوبات بشأن الحضور لإجراء بعض الإصلاحات من أجل المستأجرين الجدد للمكان. فكان أحد دواعي سروره في الحياة أن يلتقي أكبر عدد ممكن من الوافدين إلى القرية. كان من الأحداث الأساسية في حياته أن يتمكن من التقاء أناس لم يكونوا قد سمعوا حتى الآن أيًّا من ذكرياته وتذكراته الرائعة؛ لأن من كانوا قد سمعوها عادة ما كانوا لا يشجعونه على تكرار تلك الروايات. أما المستمع الجديد! فهو حادث سار دائمًا. هذا جنبًا إلى جنب مع عرض ذلك الكم المدهش من القدرات التي كان يتمكن من إضافتها إلى مختلف أنواع الخدمات التي كان يؤديها للمجتمع الذي يعيش فيه. وكان يسره التعليق على ما يجري.

– من دواعي حسن الحظ أن "**جو**" لم يصب بجرح قطعي. كان من الممكن أن يشوه وجهه تمامًا.

– هذا صحيح.

– لا يزال يوجد قدر آخر من الزجاج يتطلب الانتزاع من على الأرضية يا سيدتي. قالت "**توبنس**":

– أعلم ذلك. لم يتح لنا وقت كافٍ بعد.

– آه. لكن لا يمكنك أن تغامري بالتعامل مع الزجاج. تعلمين كيف يصيب. شظية دقيقة منه من الممكن أن تحدث كل الضرر الذي بالعالم. من

الممكن أن تقتل إذا تسربت إلى داخل أحد الأوعية الدموية. أتذكر ما حدث للآنسة "**لافنياشوتاكوم**". لن تصدقي.. لم تغر قصة هذه الفتاة "**توبنس**" بالإصغاء إليها. كانت قد سمعت شخصيات محلية أخرى تذكر هذا الاسم. يبدو أنها كانت في سن ما بين السبعين والثمانين وكانت صمّاء تماما وشبه عمياء. قالت "**توبنس**" مقاطعة – قبل أن يبدأ "**إيزاك**" سرد ذكرياته عن "**لافنياشوتاكوم**":

– أفترض أنك لابد تعرف الكثير عن مختلف الناس الذين عاشوا في هذا المنزل وعن الأحداث الاستثنائية التي وقعت به في الماضي.

– آه. لست حديث السن كما كنت كما تعلمين. فأنا فوق الخامسة والثمانين الآن وعلى أبواب التسعين. دائما ما كنت قوي الذاكرة. وهناك أمور لا ينساها المرء. مهما طال الزمن هناك شيء ما يذكره بها دائماً ويعيدها إليه. الأمور التي يمكنني أن أخبرك بها قد لا تصدقينها. فقالت "**توبنس**":

– كم هذا رائع! أن أرى أنك تتذكر أناساً استثنائيين كثيرين.

– آه. لا. لا تبرير لأشخاص. أليس كذلك؟ الذين ليسوا كما تظنينهم. أمور لا يمكن أن تصدقيها عنهم أحياناً. فقالت "**توبنس**":

– جواسيس أحيانا أو مجرمون. ونظرت إليه آملة. انحنى "**إيزاك**" العجوز والتقط شظية زجاج قائلا:

– ها هي. ماذا سيكون شعورك لو أن هذه دخلت في باطن قدمك؟

بدأت "**توبنس**" تشعر بان عملية تركيب الزجاج بالمنور لن ياتي بالكثير من ذكريات "**إيزاك**" المثيرة عن أحداث ماضية. ذكرت أن ما يعرف بالدفيئة الصغيرة الملاصقة لأحد جدران المنزل بالقرب من نافذة حجرة المائدة تحتاج أيضاً إلى بعض الإصلاحات واستبدال بعض قطع زجاجها. هل إصلاحها مجد أم من الأفضل هدمها؟ سعد "**إيزاك**" بالانتقال إلى هذه المشكلة الجديدة. نزلا إلى الطابق الأسفل ثم سارا خارج جدران المنزل حتى بلغا الدفيئة المعنية.

– هذه ما تعنين. أليس كذلك؟ أجابت "**توبنس**" بالإثبات وبأنها تعني

تلك الدفيئة. قال "**إيزاك**" :

– K K. نظرت "**توبنس**" إليه. هذان الحرفان من الحروف الهجائية الإنجليزية لم يعنيا لها شيئًا.

– ماذا قلت؟

– قلت K K، هكذا كانوا يطلقون عليها في أيام السيدة "**لوتي جونز**" العجوز.

– ولماذا سمتها بذلك؟

– لا أعلم. أعتقد أنه نوع من المسميات التي اعتادوا أن يطلقوها على مثل هذه الأماكن. لم تكن رائعة جدًا. في المنازل الأكبر مساحة توجد مستنبتات زجاجية حقيقة حيث يزرعون سرخسيات كزبرة البئر في قدور فخارية. قالت "**توبنس**" وقد عاودتها ذكريات مثل هذه الأشياء بسهولة:

– نعم.

– ويسمونه بالدفيئة أيضًا. لكن هذه التي هنا كانت السيدة "**لوتي جونز**" العجوز تسميها K K ولا أعلم لماذا.

– هل كانت لديهم سرخسيات كزبرة البئر بها؟

– لا. لم تكن مستخدمة لهذا الغرض. استخدمها الأطفال لحفظ أدوات لعبهم في غالبية الأوقات. وبمناسبة الحديث عن هذه الأدوات أعتقد أنها لا تزال هنا إذا لم يكن أحد قد أخرجها من هذا المكان. إنه متهاو. أليس كذلك؟ قاموا بترميمه ثم وضعوا عليه شيئًا من سقف ولا أعتقد أن أحدًا سوف يستخدمه ثانية. كانوا يضعون به اللعب والمقاعد المكسورة وما إلى ذلك. لكن لا يزال الحصان الخشبي الهزاز هنا و"**الحب الصادق**" بالركن البعيد. سألت "**توبنس**" وهي تحاول النظر إلى جزء أكثر وضوحًا بأحد أجزاء الزجاج.

– هل يمكننا الدخول؟ لابد أن يكون هناك بالداخل الكثير من الأشياء الغريبة. فقال "**إيزاك**" :

– المفتاح هناك. أتوقع أن يكون معلقًا في موضعه ذاته.
– وأين موضعه؟
– هناك سقيفة قريبة من هنا.

اتجها إلى الممر الملاصق. كانت السقيفة تستحق بالكاد أن توصف بأنها سقيفة. ركل "**إيزاك**" بابها ففتحه، ثم أزاح من الطريق قطعًا مختلفة الأحجام من فروع الأشجار ثم أزاح بقدمه عددًا من ثمار التفاح المتعفنة ثم انتزع ممسحة أرجل قديمة كانت معلقة على الجدار فكشف عن وجود ثلاثة أو أربعة مفاتيح غطاها الصدأ معلقة في مسمار. قال:

– هذه هي مفاتيح "**لندوب**" الشخص ما قبل الأخير الذي كان يعيش هنا كبستاني. كان صانع سلال متقاعد. لم يكن موفقًا في أي شيء قام به. هل تحبين أن تلقي نظرة إلى داخل K K؟ فأجابت "**توبنس**" وقد ملأها الأمل:
– نعم. أحب أن أرى ما بداخل K K، كيف تتهجاها؟
– كيف أتهجًى ماذا؟
– أعني K K، هل هي حرفان فقط؟
– لا. أعتقد أنها كانت شيئًا مختلفًا. أتذكر أنها كانت حرفين يرمزان إلى كلمتين أجنبيتين... أو أعتقد أنها كلمة يابانية. فسألت "**توبنس**":
– هل عاش هنا يابانيون؟
– لا. لا شيء من هذا. ليست هذه النوعية من الأجانب.

كان لاستخدام قدر قليل من الزيت، أتى به "**إيزاك**"، أثر مذهل في أكثر المفاتيح صدأً، فما إن أدخله بقفل الباب وأداره حتى أحدث ضجيج احتكاك وأمكن دفع الباب ففتح ودخلت "**توبنس**" مع مرشدها. فقال "**إيزاك**":
– هأنت بالداخل. لا شيء سوى مهملات قديمة. فقالت "**توبنس**":
– ذلك الحصان جميل المنظر. فقال "**إيزاك**":
– إنه "**ماتيلدا**". فقالت "**توبنس**" متحيرة:
– "**ماتيلدا**"؟

– نعم. إنه أسم امرأة. إحدى الملكات. ذكر أحدهم أنها زوجة "**وليام**" الفاتح ولكنني أعتقد أنهم كانوا متباهين بهذا الاسم فقط. أوتي به من "**أمريكا**". أب أمريكي لأحد الأطفال بالمعمودية أحضره له.

– أحضره لمن؟

– أحد أبناء آل "**باسينجتون**" الذين عاشوا هنا قبل الآخرين. أعتقد أنه أصبح صدئًا تمامًا الآن.

كانت "**ماتيلدا**" فرسة جميلة المنظر حتى في صدئها. كانت بطول أي حصان أو فرسة موجودة الآن. لم يبق سوى عدد قليل من الشعر بعُرفها الذي لابد أن كان غزيرًا فيما سبق، كُسرت إحدى أذنيها. وكانت مطلية باللون الرمادي. وساقاها الأماميتان ممتدتان إلى الأمام وساقاها الخلفيتان إلى الخلف ولم يكن ذيلها كثًّا. قالت "**توبنس**":

– إنها لا تعمل مثل أي حصان هزّاز شاهدته من قبل. وقال "**إيزاك**":

– لا. الأخرى تتحرك إلى أعلى وإلى أسفل .. إلى أعلى وإلى أسفل. ومن الأمام إلى الخلف. أما هذه فتقفز إلى الأمام. تبدأ هذه الحركة بالساقين الأماميتين ثم يليها الساقان الخلفيتان. تؤدي حركة جيدة. سأحاول أن أمتطيها وأريك كيف تعمل. فقالت "**توبنس**":

– كن حذرًا. ربما تكون هناك مسامير أو شيء آخر يوخزك أو ربما تسقط من فوقها.

– آه. لقد امتطيت "**ماتيلدا**" منذ خمسين أو ستين عامًا. ولكنني أتذكر جيدًا. ولا تزال متينة جدًّا. لم تتهاو بعد. وبحركة أكروباتية مفاجئة قفز إلى ما فوق ظهر "**ماتيلدا**". اندفع الحصان مسرعا إلى الأمام ثم إلى الخلف.

– قادرة على الحركة، أليس كذلك؟ فقالت "**توبنس**":

– نعم. إنها قادرة.

– كم أحبوها! الآنسة "**جيني**" كانت تمتطيها يوميًّا.

– من هي الآنسة "**جيني**"؟

– كانت أكبر من بالبيت سنًا. هي من كان لها الأب بالمعمودية الذي أرسل إليها هذا الحصان. كما أرسل إليها "**الحب الصادق**" أيضًا.

رمقته "**توبنس**" بنظرات الاستفسار إذ لم ينطبق هذا الوصف على أي من محتويات K K الأخرى.

– هذا ما يسمونه به. ذلك الحصان الصغير والعربة الموجودة بالركن هناك. اعتادت الآنسة "**باميلا**" أن تركبها هبوطا من فوق التل. كانت جادة جدًّا الآنسة "**باميلا**". كانت تركبها عند قمة التل واضعة قدميها فوق البدالين. العربة مزودة ببدالين ولكنهما لا يعملان؛ لهذا كانت تأخذها إلى أعلى التل ثم تتركها تنحدر إلى أسفل ثم تضع قدميها فوق الفرامل وكثيرًا ما انحدرت بها العربة إلى ما بين الشجيرات الشائكة المعروفة باسم لغز القرد. فقالت "**توبنس**":

– يبدو هذا غير مريح تماما. أعني أن تستقر العربة بها وسط الأشواك.

– كان يمكنها دائمًا أن توقف العربة قبل أن تبلغ هذه البقعة. كانت جادة جدًّا. وكانت تفعل هذا بالساعات .. ثلاث أو أربع ساعات. كنت أراقبها تفعل ذلك بينما أعتني بأحواض الورد وبعشب الممرات. كنت أراها تهبط من فوق التل ولا أحدثها؛ لأنها لم تحب أن يحدثها أحد. كانت تحب أن تواصل ما تفعله أو تظن أنها تفعله. سألت "**توبنس**" وقد راودها اهتمام مفاجئ بأمر الآنسة "**باميلا**":

– وما الذي كانت تظن أنها تفعله؟

– لا أعلم. كانت تقول في بعض الأحيان إنها أميرة هاربة أو إنها "**ماري**" ملكة .. لا أعلم من .. "**إيرلندا**" أو "**اسكتلندا**"؟ فقالت "**توبنس**":

– ملكة الاسكتلنديين.

– نعم. هذا صحيح. وأنها رحلت أو هربت. وتوجهت إلى أحد الحصون وقفلت شيئًا ما .. ليس قفلاً حقيقيًا .. قطعة مائية كانت...

– آه. نعم. فهمت. تصورت "**باميلا**" أنها ملكة "**اسكتلندا**" التي فرت من أعدائها؟

– هذا صحيح .. وذهبت إلى "**إنجلترا**" لتضع نفسها تحت رحمة الملكة "**أليزابيث**". هذا ما قالته ولكنني لا أعتقد أن الملكة "**أليزابيث**" كانت رحيمة جداً. فقالت "**توبنس**" مخفية أي قدر أصابها من خيبة الأمل:

– حسنا. كل هذا مثير للاهتمام بكل تأكيد. من قلت كان هؤلاء الناس؟

– هم آل "**ليستر**".

– هل عرفت أحداً باسم "**ماري جوردان**"؟

– أعلم من تعنين. أعتقد أنها كانت قبل مجيئي إلى هنا بزمن قصير. تعنين تلك الفتاة الجاسوسة الألمانية .. أليس كذلك؟ فقالت "**توبنس**":

– يبدو أن الجميع يعلمون هذا عنها.

– نعم. كانوا يلقبونها بالفراولاين (الآنسة بالألمانية) أو بشيء من هذا القبيل. لهذا اللقب وقع الحديث على أذني عن خط للسكك الحديدية. فقالت "**توبنس**":

– هذا صحيح. فضحك "**إيزاك**" قائلا:

– لو كانت خطا لسكة حديدية فلم تكن مستقيمة المسار. أليس كذلك؟ وضحك "**إيزاك**" ثانية، وعقبت "**توبنس**" بقولها:

– يا لها من نكتة ظريفة! وضحك "**إيزاك**" مرة أخرى. قال:

– لقد حان موسم زراعة بعض الخضراوات. لو أردت الحصول على الفول في موسم مناسب ينبغي أن نبدأ بزراعته الآن ثم نعد الأرض لزراعة البازلاء. وماذا عن الخس المبكر؟ هناك نوع لذيذ جداً هو "**توم ثمبز**" صغير الحجم ولكنه رائع.

– أعتقد أنك عملت بالحدائق مدة طويلة. ليس في هذا المنزل فقط بل في أماكن أخرى أيضاً.

– نعم. عملت كثيراً. كنت أذهب إلى غالبية المنازل. لم يكن البستانيون على المستوى المطلوب. فكنت آتي للمساعدة في بعض المواسم. وقع هنا حادث صغير ذات مرة. خطأ في الخضراوات. قبل أن آتي إلى هنا. ولكنني

سمعت عنه. فقالت "**توبنس**" :

– خطأ ذو صلة بأوراق قفاز الثعلب، أليس كذلك؟

– أتصور أنك قد سمعت به أيضًا. كان ذلك منذ زمن بعيد. مرض كثيرون بسببه. وتوفي أحدهم. هذا ما سمعته على الأقل. أخبرني به أحد أصدقائي. فقالت "**توبنس**" :

– من توفي كان الفراولاين.

– ماذا. هل توفيت الفراولاين؟ لم أسمع عن ذلك قط. قالت "**توبنس**" :

– حسنا. ربما أكون أنا المخطئة. ثم أضافت :

– لنأخذ "**الحب الصادق**" أو أيًا كان اسم هذا الشيء ونضعه فوق التل في الموضع الذي كانت تلك الطفلة "**باميلا**" معتادة أن تقوده إلى أسفل التل .. إذا كان التل لا يزال موجودًا.

– التل لا يزال موجودًا بالتأكيد. ما رأيك؟ لا يزال مكسوًا بالعشب ومع ذلك ينبغي أن تكوني حذرة. لا أعلم كم الصدإ الذي أصاب "**الحب الصادق**". ينبغي أن أعمل على تنظيفه أولاً. هل هذا مناسب؟ فقالت "**توبنس**" :

– نعم. ثم يمكنك أن تفكر في قائمة الخضراوات التي ينبغي أن نبدأ بزراعتها الآن.

– نعم. وسأكون حذرًا بحيث لا يزرع قفاز الثعلب بجوار السبانخ. فأنا لا أحب أن أسمع بأن ضررًا ما قد أصابك وأنت بعد مستجدة بهذا المنزل. هذا المنزل جميل ولكنه يحتاج إلى أن ينفق مبلغ من المال عليه. قالت "**توبنس**" :

– شكرًا جزيلاً.

– وسوف أعتني بذلك "**الحب الصادق**" بحيث لا يتعرض للكسر من تحتك. إنه قديم جدًا لكن من المدهش أن تحتفظ هذه الأشياء القديمة بكفاءتها... إلى حد ما. أعلم أن أحد أبناء عمومتي أخرج من المخزن دراجة

قديمة. ما كان أحد ليظن أنها من الممكن أن تعمل. لم يركبها أحد منذ أربعين عاما. ولكنها أصبحت في حالة عمل جيدة باستخدام قليل من الزيت. مدهش ما يمكن لقطرة الزيت أن تفعله.

*****

- 11 -

ستة أشياء مستحيلة قبل الإفطار

قال "**تومي**" :

– ماذا بحق السماء..؟

اعتاد أن يجد "**توبنس**" في مواقع غير محتملة لدى عودته إلى المنزل ولكنه في هذه المرة أصيب بذعر أكثر من أية مرة سابقة.

لم يكن لها أدنى أثر بداخل المنزل على الرغم من سقوط أمطار خفيفة خارجه. لاح بذهنه أنها ربما تكون مستغرقة في فعل شيء ما بأحد أجزاء الحديقة وذهب ليرى ما إذا كان هذا هو الحال. وكان عندئذ أن قال ملاحظته:

– ماذا بحق السماء..؟ وقالت "**توبنس**" :

– أهلاً بك يا "**تومي**". لقد عدت في موعد مبكر بأكثر مما كنت أظن.

– ما هذا الشيء؟

– تعني "**الحب الصادق**"؟

– ماذا قلت؟ فأجابت "**توبنس**" :

– "**الحب الصادق**". هذا ما قلته. وهذا اسمه.

– هل تحاولين الذهاب إلى أي مكان راكبة إياه .. إنه صغير جداً بحيث لا يتسع لك.

– هذا صحيح. إنه لطفلة .. ما أعتقد أنه يكون للأطفال قبل الدراجات الصغيرة أو مثل هذه الأشياء. سأل "**تومي**" :

– إنه لا يعمل. أليس كذلك؟ وقالت "**توبنس**" :

– ليس على النحو المفترض. ولكنه – كما ترى – يمكن حمله إلى قمة التل ثم .. تدور عجلاته ذاتياً وبسبب انحدار التل يهبط إلى أسفل.

– ويتحطم عند قدمه على ما أفترض. هل هذا ما كنت تفعلينه؟ قالت "**توبنس**" :

– أبداً. تتم فرملته باستخدام القدمين. هل تحب أن أريك كيف يعمل؟ فقال "**تومي**" :

– لا أظن ذلك. بدأت الأمطار تشتد. كل ما أردته هو أن أعرف لماذا .. لماذا تفعلين هذا؟ لا أظن أنه ممتع جداً. فقالت "**توبنس**" :

– واقع الأمر أنه مخيف جداً. ولكنني أردت أن أكتشف..

– وتستفسرين عن هذه الشجرة؟ ما اسمها بهذه المناسبة؟ لغز القرد، أليس كذلك؟ فقالت "**توبنس**" :

– هذا صحيح. كم أنت ماهر حتى تعرف. فقال "**تومي**" :

– أعرف بالتأكيد. وأعرف اسمها الآخر أيضاً. فقالت "**توبنس**" :

– وأعرفه أنا أيضاً. نظر كل منهما إلى الآخر. ثم قال "**تومي**" :

– ولكنني نسيته الآن هل هو أرتيـ .. فقالت "**توبنس**" :

– شيء أشبه بذلك. أعتقد أن هذا يكفي. أليس كذلك؟

– وماذا تفعلين بداخل شيء شائك كهذا؟

– لأنك عندما تبلغ نهاية التل – أعني إذا لم تضغط بقدميك على الفرامل لتوقف العربة تماماً – من الممكن أن تندفع إلى وسط الأرتيـ .. أو أيًّا كان اسمها.

– هل ما أعنيه هو أرتيـ ..؟ وماذا عن الأرتيكاريا؟ لا. ذلك هو الشّرَى أليس كذلك؟ حسنا. ليتسل كل واحد وفقاً لما يحلو له.

– كنت أجري بحثاً صغيراً عن مشكلتنا الأخيرة فقط.

– مشكلتك؟ مشكلتي؟ مشكلة من؟ فقالت "**توبنس**" :

– لا أعلم. مشكلتانا.

– لكن ليست واحدة من مشاكل "**بياتريس**" أو أي شيء كهذا؟

– لا. لا. كل ما في الأمر أنني كنت أتساءل ماذا أيضاً من الممكن أن يكون مخبأ في هذا المنزل، فذهبت وألقيت نظرة إلى عدد كبير من لعب الأطفال التي بدت مخزنة بداخل مستنبت عتيق غريب ربما منذ سنوات وسنوات.

فوجدت هذا الشيء و"**ماتيلدا**" وهي حصان هزاز ذو فتحة بالمعدة.

– فتحة بمعدتها؟

– نعم. أفترض أن الناس اعتادوا وضع الأشياء بداخلها. الأطفال – من قبيل العبث– والكثير من أوراق الأشجار والأوراق المتسخة وقطع من قماش التنظيف وأنسجة مزيَّتة كانت قد استخدمت في أعمال التنظيف. فقال "**تومي**":

– هيا، لندخل المنزل.

*****

قالت "**توبنس**" وهي تمدد قدميها أمام المدفأة التي كانت قد أوقدتها في انتظار عودته بحجرة الجلوس:

– حسنًا يا "**تومي**". أسمعني ما عندك من أخبار. هل ذهبت إلى المعرض المقام بفندق "**ريتش**" وشاهدت العرض؟

– لا. واقع الأمر أنني لم أذهب. لم يتوفر لي الوقت اللازم.

– ماذا تعني بأن الوقت لم يتوفر لديك؟ ظننت أنك قد ذهبت خصيصًا من أجل ذلك.

– لا يفعل المرء دائمًا الشيء الذي خرج من أجله. فقالت "**توبنس**":

– لابد أنك ذهبت إلى مكان ما وفعلت شيئًا ما.

– عثرت على مكان جديد أمكنني أن أترك السيارة به. فقالت "**توبنس**":

– هذا مفيد جدًا. وأين هو؟

– بالقرب من "**هاونسلو**".

– وما الذي دفعك إلى أن تذهب إلى "**هاونسلو**"؟

– لم أذهب إلى هناك فعلاً. يوجد هناك موقف للسيارات. ثم ركبت قطار الأنفاق من هناك.

– ماذا .. قطار الأنفاق إلى "**لندن**"؟

– نعم. نعم. بدا ذلك لي أسهل الطرق. قالت "**توبنس**" :

– أرى في عينيك نظرة إحساس بالذنب. لا تقل إن لي منافسة تعيش في "**هاونسلو**". قال "**تومي**" :

– لا. لابد أن يسرك ما قد فعلته.

– هل كنت تشتري لي هدية؟ فقال "**تومي**" :

– لا. لا. يؤسفني أنني لم أفعل ذلك. لا أعلم أبداً ماذا أهدي إليك في الواقع. فقالت "**توبنس**" :

– تأتي تخميناتك موفقة تماماً في بعض الأحيان. لكن ماذا كنت تفعل ولماذا تتوقع أن يسرني ذلك؟ فقال "**تومي**" :

– لأنني أنا أيضاً كنت أجري بحثاً. فقالت "**توبنس**" :

– الجميع يجرون أبحاثاً في هذه الأيام. جميع الصبية والفتيات من أبناء الإخوة أو أبناء العمومة أو أبناء وبنات الناس الآخرين. الجميع يجرون أبحاثاً. لا أعلم شيئاً عن الموضوعات التي يبحثون فيها في هذه الأيام، لكن يبدو أنهم لا ينجزون أي شيء مهما كان. كل ما هنالك أن لديهم بحثاً ينفقون فيه وقتاً طويلاً ويتباهون بقدراتهم.. ثم لا أدري إلى ماذا ينتهي. قال "**تومي**" :

– ذهبت ابنتنا المتبناه "**بيتي**" إلى شرق "**إفريقيا**"، هل لديك أخبار منها؟

– نعم. إنها معجبة بالمكان.. تعشق الاتصال بالعائلات الإفريقية والكتابة عنها. فسأل "**تومي**" :

– هل تعتقدين أن هذه العائلات تستسيغ اهتمامها بها؟ فقالت "**توبنس**" :

– لا أظن ذلك. أذكر أنه في منطقة خدمة والدي كان الجميع يمقتون زيارات مسؤولي الحي لهم. كانوا ينعتونهم بالفضوليين. فقال "**تومي**" :

– أنت محقة فيما تقولين، بل إنك تشيرين إلى صعاب ما أضطلع به أو ما أحاول الاضطلاع به.

– ما موضوع بحثك؟ أرجو ألا يكون جزازة العشب.

– لا أدري لماذا تذكرين جزازات العشب. فقالت "**توبنس**" :

– لأنك دائما تتصفح كتالوجاتها. أنت توّاق إلى اقتناء إحداها.

– في منزلنا هذا ينصب اهتمامنا على الأبحاث التاريخية .. الجرائم وما إلى ذلك مما يبدو أنه قد حدث منذ ستين أو سبعين عامًا على الأقل.

– على أية حال .. هيا .. أخبرني بالمزيد عن مشروعاتك البحثية يا "**تومي**". قال "**تومي**" :

– ذهبت إلى "**لندن**" وحركت بعض الأمور. فقالت "**توبنس**" :

– البحث؟ حركت عملية البحث. قمت أنا أيضًا بمثل هذا الشيء وإن اختلف منهاجانا. وحقبتي سابقة في الزمن جدًّا. فقال "**تومي**" :

– هل ما تعنينه هو أنك قد بدأت بالفعل الاهتمام بمشكلة "**ماري جوردان**"؟ وهكذا تضعينها على جدول أعمالك في هذه الأيام. من المؤكد أنها قد بدأت تتشكل، أليس كذلك؟ أعني لغز أو مشكلة "**ماري جوردان**". فقالت "**توبنس**" :

– مثل هذا الاسم العادي جدًّا أيضًا. من المستحيل أن يكون هذا هو اسمها الحقيقي لو كانت ألمانية. وقد قيل إنها جاسوسة ألمانية أو شيء كهذا. لكن من الممكن أنها كانت إنجليزية حسب افتراضي.

– أعتقد أن الحديث عن كونها ألمانية مجرد أسطورة.

– واصل حديثك يا "**تومي**". لم تقل لي شيئًا حتى الآن.

– حسنا.. لقد حددت.. حددت.. حددت.. فقالت "**توبنس**" :

– لا تواصل قول حددت .. فأنا لا أفهم شيئًا. قال "**تومي**" :

– يكون من الصعب التعبير عن الأمور أحيانا. ولكن ما أعنيه هو أنني قد حددت طرقًا للاستقصاء.

– هل تعني الأمور الماضية؟

– نعم. إلى حد ما. أعني أن هناك أمورًا يمكن اكتشافها.. أمورًا من الممكن استقاء معلومات منها. ليس بمجرد ركوب اللعب القديمة ومطالبة العجائز

بتذكر الأحداث ولا باستجواب البستاني العجوز، الذي من الوارد أن يوافيك بمعلومات خاطئة تمامًا، ولا بالذهاب إلى مكتب البريد وإزعاج العاملين به بمطالبة الفتيات بأن يروين لك الذكريات التي ذكرتها جداتهن لهن ذات يوم. فقالت "**توبنس**":

– حصلت من الجميع على قدر ما. فقال "**تومي**":

– وسوف أحصل أنا أيضًا من مصادري على قدر آخر.

– كنت تستعلم؟ على من تطرح استفساراتك؟

– ليس الوضع كذلك تماما. لكن لابد أن تتذكري، يا "**توبنس**"، أن بين حين وآخر في حياتي، كنت على صلة بأناس متمرسين في هذه النوعية من الأمور. هناك من تُدفع لهم مبالغ معينة ليقوموا عنك بعمليات البحث بالأماكن الصحيحة بحيث يكون ما تحصلين عليه صحيحًا ومعتمدًا أيضًا.

– أية نوعية من الأمور؟ وأية نوعية من الأماكن؟

– عدد كبير من الأمور. بادئ ذي بدء يمكنك الحصول على من يمكنه فحص الوفيات والمواليد والزيجات .. هذه النوعية من البيانات.

– أفترض أنك كلّفتهم بالذهاب إلى "**سومرست هاوس**". هل هم معنيون بالوفيات أيضًا مثل الزيجات؟

– وبالمواليد. وليس المرء محتاجًا إلى أن يذهب إلى هناك بشخصه. بل يمكن تكليف أحد بالقيام بهذه المهمة، فيعرف تاريخ وفاة أحدهم أو يطلع على وصية آخر أو يبحث في سجل الزيجات التي أقيمت بالكنائس أو يفحص شهادات ميلاد. جميع هذه الأمور يمكن التحري عنها. سألت "**توبنس**":

– هل أنفقت مالاً كثيرًا؟ كنت أظن أننا قد اتفقنا على أن نقتصد بمجرد سداد نفقات الانتقال إلى هنا.

– عند أخذ اهتمامك بالمشاكل في الاعتبار أرى أنه من الممكن اعتبار ذلك مالاً أنفق في موضعه.

– هل عثرت على أي شيء إذًا؟

– لا يمكن أن يكون هذا بمثل هذه السرعة. ينبغي الانتظار إلى حين إتمام البحث. وعندئذ إذا أمكنهم الحصول على إجابات عن استفساراتك...

– تعني أن فرداً ما سيأتي ويخبرك بأن فتاة تدعى "**ماري جوردان**" ولدت في مدينة هذا اسمها أو أي شيء من هذا القبيل، وبناء على ذلك تذهب إلى هناك فيما بعد وتجري بعض الاستقصاءات. هكذا تجري الأمور؟

– ليس تمامًا. ثم إن هناك كشوف الإحصاء الرسمي للسكان وشهادات الوفاة وأسباب الوفاة وعدداً كبيراً من الأمور الأخرى التي يمكن الكشف عنها. قالت "**توبنس**":

– يبدو هذا مثيراً للاهتمام على أي حال، وهذا يعني شيئًا ما دائمًا.

– وهناك ملفات بمكاتب الصحف يمكنك قراءتها ودراستها.

– تعني تقارير عن أمور مثل .. جرائم القتل أو المحاكمات؟

– ليس بالضرورة. لكن أن يكون للمرء اتصالات بأشخاص معينين من وقت إلى آخر. أناس من المطلعين على بواطن الأمور .. يمكن للمرء أن يبحث عن عناوينهم أو أرقام هواتفهم .. يطرح بعض الاستفسارات .. ويجدد علاقات قديمة. مثل الزمن الذي كنا فيه مؤسسة شرطة سرية في "**لندن**". أعتقد أن هناك عدداً قليلاً ممن يمكنهم إمدادنا ببعض المعلومات أو توجيهنا إلى المسار الصحيح. تتوقف الأمور – إلى حد ما– على المعارف. قالت "**توبنس**":

– هذا صحيح تمامًا. أعلم ذلك من واقع خبرتي الشخصية. قال "**تومي**":

– منهاجانا مختلفان. وأعتقد أن منهاجك على ذات المستوى من منهاجي أنا. لن أنسى أبداً ذلك اليوم الذي دخلت فيه فجأة ذلك المثوى "**سان سوسي**" أو أيًا كان اسمه. كان أول شيء وقع عليه بصري هو أنت جالسة هناك تشتغلين التريكو وتعرّفين نفسك باسم السيدة "**بلنكنسوب**". فقالت "**توبنس**":

– كل هذا لأنني لم أستخدم البحث ولم أستخدم أحداً ليقوم به عني.
فقال "**تومي**":

– لا. قبعت بداخل حجرة ملابس ملاصقة للحجرة التي استقبلت فيها بطريقة مثيرة للاهتمام جداً وبذلك عرفت المكان الذي بعث بي إليه ونوعية المهمة التي كلفت بها وتمكنت من الذهاب إلى هناك بسرعة. التنصُّت. لا أكثر ولا أقل. أمر مشين للغاية. فقالت "**توبنس**":

– وأتيت بنتائج مرضية جداً. فقال "**تومي**":

– نعم. لديك حسّ بالنجاح. يبدو أنه يراودك.

– حسنا. في يوم ما سوف نعلم عن كل شيء هنا وإن كان قد حدث منذ سنوات وسنوات. لا يسعني الاقتناع بأهمية فكرة أن شيئًا ما مهمًّا جداً قد خبئ في موضع ما من هذا المنزل أو مملوكًا لأحد ما هنا أو ذا صلة بهذا المنزل أو بمن عاشوا فيه من قبل.. لا يمكنني أن أصدق هذه الفكرة بصورة أو بأخرى. حسنا. أرى ما لابد أن نتخذه بعد ذلك. سأل "**تومي**":

– ماذا؟ فقالت "**توبنس**":

– أن نصدق ستة مستحيلات قبل الفطور.. بالتأكيد. الساعة الآن هي الحادية عشرة إلا ربعًا. وأريد أن أذهب إلى الفراش. فأنا متعبة ويغالبني النعاس. كما أنني متسخة تماماً بسبب العبث بتلك الأشياء ولعب الأطفال العتيقة المتربة. أعتقد أنه لا تزال هناك أشياء كثيرة أخرى بذلك المكان المسمى K K ، بهذه المناسبة لماذا يسمونه K K؟

– لا أعلم. يمكنك تهجيته؟

– لا أدري. أعتقد أن تهجيته هي ك. ي. ي. وليس مجرد K K.

– الآن ذلك يضفي عليها مزيداً من الغموض؟ قالت "**توبنس**" بنبرة غير المتأكد:

– يبدو أنها كلمة يابانية.

– لا أرى لماذا تبدو لك يابانية. لا تبدو لي كذلك. تبدو لي كصنف من

الطعام ربما أحد أطباق الأرز. قالت "**توبنس**" :

– أنا ذاهبة لأغتسل وأتخلص من خيوط العنكبوت التي لصقت بي. فقال "**تومي**" :

– تذكري .. ستة مستحيلات قبل الفطور. فقالت "**توبنس**" :

– أتوقع أن أكون أفضل في ذلك منك. فقال "**تومي**" :

– تأتين بغير المتوقع في بعض الأحيان. فقالت "**توبنس**" :

– عادة ما تكون أنت أكثر صوابا مني. ويضايقني هذا أحيانًا. حسنا. أتت هذه الأمور لتختبرنا. من كان معتاداً أن يقول لنا هذا؟ وبصفة متكررة أيضاً. فقال "**تومي**" :

– لا بأس. اذهبي وتخلصي من غبار سنين ماضية. هل "**إيزاك**" كفء في مجال العناية بالحديقة؟ فقالت "**توبنس**" :

– يعتبر نفسه كذلك. من الممكن أن نجرِّبه.

– لسوء الحظ أننا لا نعلم الكثير عن العناية بالحدائق، وهذه مشكلة أخرى.

*****

- 12 -

رحلة على متن "الحب الصادق"
"أكسفورد" و"كمبريدج"

قالت "**توبنس**" وهي تحتسي قدح قهوة وتنظر إلى بيضة مقلية باقية في الصحفة على قطعتي لحم فوق المنضدة الجانبية:

- ستة مستحيلات قبل الفطور حقًا. الفطور أكثر فائدة من التفكير في المستحيلات. "**تومي**" هو الذي سعى وراء الأشياء المستحيلة. البحث... إنني لأتساءل عما إذا كان سيتوصل إلى أي شيء من خلاله. تناولت الفطور الذي بالصحفة قائلة:

- كم هو لذيذ هذا الفطور المختلف!

كانت قد اعتادت مدى فترة طويلة أن تكتفي بتناول قدح قهوة في الصباح مع عصير البرتقال أو الجريب فروت. وعلى الرغم من أن هذا كافٍ كحل لمشاكل زيادة الوزن إلا أنه لم يكن ممتعًا جداً. قالت:

- أعتقد أن هذه هي نوعية الفطور التي كان آل "**باركنسون**" يتناولونها. البيض المقلي.. أو المسلوق في الماء المغلي .. واللحم. وربما ..

عادت بذاكرتها إلى سنين طويلة ماضية وإلى ذكريات الروايات القديمة .. "ربما دجاج بارو. كم هو لذيذ! نعم. أتذكر بدا لذيذاً. وأعتقد أن الأطفال لم يكونوا مهمين جداً بحيث كانوا يعطونهم الأرجل. أرجل الطيور جيدة؛ لأنه يمكن قضمها برفق (قزقزتها)". توقفت وآخر قطعة لحم بفمها. ترامت أصوات ضجيج من مدخل الباب. قالت "**توبنس**":

- ما هذا؟ أصوات مثل حفل موسيقي أصابه النشاز. توقفت ثانية وقطعة خبز بيدها ورفعت بصرها لحظة دخول "**ألبرت**" الحجرة. سألته:

- ما الذي يجري يا "**ألبرت**". لا تقل إن العمال الذين لدينا يعزفون على شيء ما. القدمية (ضرب من الأرغن) أو شيء من هذا القبيل. فأجاب "**ألبرت**":

– إنه الرجل الذي حضر لإصلاح "البيانو" .

– أتى ليفعل ماذا بـ"البيانو" ؟

– لضبط أنغامه. لقد طلبت مني استدعاء من يقوم بضبط أنغامه. قالت "**توبنس**" :

– يا إلهي. وأتيت به؟ كم أنك مدهش يا "**ألبرت**" !

بدا "**ألبرت**" مسروراً وإن كان قد أدرك في الوقت ذاته أنه كان مدهشًا في السرعة التي يلبي بها الاحتياجات الغريبة التي تطلبها منه "**توبنس**" والتي يطلبها "**تومي**" أيضًا في بعض الأحيان. قال:

– ذكر الرجل أن "البيانو" يحتاج بشدة إلى عملية الضبط. فقالت "**توبنس**" :

– أتوقع أنه يحتاج إليها.

شربت نصف قدح قهوة وغادرت الحجرة إلى حجرة الاستقبال. وجدت شابًّا منكبًّا على العمل بـ"البيانو" العملاق الذي وقف كاشفًا عن جزء كبير من دواخله. بادرها الشاب بقوله:

– صباح الخير يا سيدتي. وأجابت "**توبنس**" :

– صباح الخير. إنني سعيدة لأنك تمكنت من المجيء.

– نعم. إنه يحتاج إلى ضبط. فقالت "**توبنس**" :

– نعم. أعلم ذلك. لقد انتقلنا إلى هنا حديثًا وعملية النقل تضر بمثل هذه الأجهزة. كما أنه لم يخضع لعملية ضبط منذ سنوات. فقال الشاب:

– هذا واضح تمامًا. ضغط على ثلاثة أوتار مختلفة على التوالي واثنين مرحين بصوت عالٍ وآخرين حزينين بصوت خافت.

– آلة جميلة يا سيدتي .. إذا كان لي أن أعلّق عليها. فقالت "**توبنس**" :

– نعم. إنها "**إيرارد**" .

– وليس من السهل الحصول على "بيانو" في هذه الأيام. فقالت "**توبنس**" :

– لقد مر "البيانو" بعدد من المتاعب. في أثناء غارة جوية في "**لندن**" أصيب

فيها منزلنا هناك. لحسن الحظ لم نكن متواجدين به، ولكن الجزء الخارجي منه هو الذي تعرض للعطب.

– نعم. نعم. الآلات بحالة جيدة. لا تحتاج إلى عمل كثير بها. تواصل الحديث بسرور، وعزفَ الشاب افتتاحيات بعض المقطوعات الموسيقية المعروفة. ثم أعلن أن عمله قد انتهى. ولكنه قال محذراً:

– لا ينبغي أن يُترك طويلاً. وأرى أن أعود لإلقاء نظرة أخرى إليه قبل وقت طويل؛ لأنني لا أعلم متى قد يتراجع أداؤه قليلاً؛ بسبب شيء ما لم ألحظه أو لم أستطع تبيّنه.

افترقا بملاحظات استحسان متبادلة عن الموسيقى بوجه العموم وعن العزف على "البيانو" بوجه الخصوص، وبتحيات مهذبة من فردين اتفقا – إلى حد بعيد – في فكرهما فيما يتصل بالمتعة التي تجلبها الموسيقى على الحياة بوجه عام. قال الشاب وهو ينظر إلى من حوله:

– يحتاج هذه المنزل إلى الكثير من العمل.

– نعم. لقد ظل خاليا فترة طويلة من الزمن قبل أن نأتي إليه.

– نعم. لقد غيَّر سكانه كثيراً. فقالت "**توبنس**":

– له تاريخ طويل. أليس كذلك؟ ما أعنيه هو الناس الذين عاشوا فيه في الماضي ونوعية الأحداث الغريبة التي وقعت.

– أتوقع أنك تتحدثين عن تلك الفترة السحيقة. لا أعلم ما إذا كان ذلك في الحرب الأخيرة أو التي قبلها. فقالت "**توبنس**" أملاً في أن تحصل على معلومة ما:

– أحداث متصلة بالأسرار البحرية أو شيء كهذا.

– هذا ممكن. كانت هناك أقاويل كثيرة .. هكذا قيل لي، لكن من المؤكد أن لا علم لي شخصيًّا بأي شيء منها. فقالت "**توبنس**" متأملة وجهه الشاب باستحسان:

– قبل أن تولد بكثير. وعندما مضى جلست إلى "البيانو" قائلة:

– سأعزف مقطوعة "**المطر فوق السطح**" .

كان ما عزفه الشاب قد ذكَّرها بهذه المقطوعة. بدأت بعد ذلك عزف لحن إحدى الأغنيات مهمهمة بمصاحبة اللحن في بادئ الأمر ثم مغنية الكلمات :

إلى أين ذهب حبي الصادق مبتعداً؟

إلى أين ابتعد حبي الصادق عني؟

فوق أشجار الغابة تغرد الطيور

متى يعود حبي الصادق إليّ؟

قالت :

– أعتقد أنني لا أستخدم المفتاح الصحيح. لكن على أية حال أصبح "البيانو" على خير ما يرام ثانية. قالت متمتمة:

– إلى أين ذهب حبي الصادق مبتعداً.. متى يعود حبي الصادق ... "حبي الصادق" "**الحب الصادق**"؟ نعم. ربما أفكر في ذلك كعلامة. ربما من الأفضل أن أخرج خارجاً وأفعل شيئاً ما بـ"**الحب الصادق**" .

ارتدت حذاء سميكا وسترة ثقيلة وخرجت إلى الحديقة. كان "**الحب الصادق**" قد دُفع به لا إلى موضعه بداخل K K بل إلى الإصطبل الفارغ. أخرجته "**توبنس**" خارجاً وجذبته إلى أعلى المنحدر المكسو بالعشب وقامت بالضرب عليه بشدة بقطعة النسيج التي أحضرتها معها لتنفض عنه أسوأ خيوط العنكبوت والغبار الذي لم يزل ملتصقاً ببضعة مواضع منه، ثم ركبت بداخل العربة واضعة قدميها فوق البدالين ودفعت بالعربة حتى تعرض سرعتها قدر الإمكان وهي على هذه الحالة من القدم والتهالك. قالت :

– والآن يا حبي الصادق إلى أسفل التل وببطء.

رفعت قدميها من فوق البدالين واضعة إياهما بحيث يمكنها فرملة العربة بهما إذا تطلب الأمر ذلك.

لم يكن باستطاعة "**الحب الصادق**" السير بسرعة على الرغم من ميزة الاندفاع بحكم الثقل وحده إلى أسفل التل. إلا أن المنحدر ازداد حدة فجأة

فزادت سرعة "**الحب الصادق**" تبعًا لذلك. وضعت "**توبنس**" قدميها على الفرامل بشدة أكبر مما كان ينبغي فاستقرت هي و"**الحب الصادق**" معًا في بقعة أكثر إيلامًا من المعتاد من لغز القرد عند قدم التل. قالت "**توبنس**" وهي تخرج نفسها بصعوبة من العربة:

– هذا مؤلم جدًا.

وبعد أن خلَّصت نفسها من أشواك لغز القرد نفَّضت الغبار عن ملابسها وألقت نظرة من حولها. كانت قد وصلت إلى بقعة غزيرة العشب، والشجيرات مؤدية إلى أعلى التل وفي الاتجاه المضاد. كانت هناك شجيرات الوردية والكوبية. رأت "**توبنس**" أن هذه الشجيرات ستبدو رائعة في وقت لاحق من العام. أما في تلك اللحظة فلم يكن بها أي قدر من الجمال فكانت مجرد دغل. إلا أنه بدا أنها قد لحظت أنه كان هناك ذات مرة ممر صاعد إلى أعلى بين مختلف شجيرات الزهور والجنبات. كان كل شيء قد نما متشابكا ببعضه البعض إلا أن اتجاه الممر كان واضحًا – إلى حد ما. قامت "**توبنس**" بكسر بعض الفروع وشقت طريقها من خلال الشجيرات الأولى وتمكنت من السير على الطريق الصاعد إلى التل. تواصل الممر ملتفًا إلى أعلى. كان واضحًا أن أحدًا لم يقم بنزع المعوقات منه أو بالسير عليه منذ سنوات. قالت "**توبنس**":

– إنني لأتساءل إلى أين يؤدي بي. لابد أن يكون هناك سبب لوجوده.

قالت محدثة نفسها والممر يتخذ منعطفين حادين في اتجاهين متضادين محدثًا زجزاجًا جعل "**توبنس**" تشعر بأنها تعلم بالضبط ما كانت "**أليس في بلد العجائب**" تعنيه بقولها إن طريقًا ينتفض فجأة ويغير اتجاهه. كان هناك عدد أقل من الشجيرات وأصبحت ترى شجيرات "الغار" الآن التي تتسق مع الاسم الذي أطلق على المنزل، ثم كان هناك طريق ضيق حجري ملتف بينهما انتهى فجأة بأربع درجات مكسوة بالعشب تؤدي إلى نوع من المشكاة (الكوة) كانت مصنوعة من المعدن ذات مرة وتم استبداله بقنينات. نوع من

المزار وبه قاعدة تمثال وعلى هذه تمثال حجري متآكل تمامًا. تمثال لصبي يحمل على رأسه سلَّة. وأتى "**توبنس**" إحساس بمعرفة معينة. قالت:

– يمكن معرفة تاريخ هذا المكان من هذا التمثال. إنه يشبه تمامًا ذلك التمثال الذي كان بحديقة الخالة "**سارة**". وكان بها عدد كبير من أشجار "الغار" أيضًا.

عادت ذاكرتها إلى الخالة "**سارة**" التي كانت تزورها بين حين وآخر وهي طفلة. تذكرت أنها هي ذاتها كانت تلعب لعبة تعرف باسم خيل النهر. كانت "**توبنس**" في ذلك الوقت في السادسة من العمر. في هذه اللعبة تخرج الفتاة طوقها الذي يمثل الخيل. خيل بيضاء لها عرف وذيول متدفقة. وبالطوق كانت "**توبنس**" في خيالها تندفع عبر بقعة مكسوة بالعشب الأخضر الكثيف ومنها إلى حوض عشب بمب يلوِّح برؤوس ريشية في الهواء. وفي نهاية ذات النوع من الممرات، وفي وسط بعض أشجار الزان، وبالنوع ذاته من كوة السقيفة، كان يوجد تمثال وسلة. وعندما كانت "**توبنس**" تركب خيولها الفائزة في هذا المكان كانت تأخذ معها هدية دائمًا لتضعها بداخل السلة فوق رأس الصبي وتقول إنها عطاء وتتمنى شيئًا ما. تذكرت "**توبنس**" أن الأمنية كانت تتحقق دائمًا. قالت "**توبنس**" وهي تجلس فجأة فوق الدرجة العليا من درجات السلم الذي كانت تصعد فوقه:

– ولكن هذا كان راجعًا إلى أنني كنت أغش في الواقع. فقد كنت أتمنى شيئًا كنت شبه واثقة بأنه سوف يحدث، وبعد ذلك كنت أشعر بأن أمنيتي قد تحققت بفعل عمل ما سحري. كان عطاء لإله حقيقي من الزمن الماضي وإن لم يكن إلهًا في الواقع فلم يكن أكثر من صبي قصير القامة ممتلئ القوام. كم كان هذا ممتعًا .. جميع الأشياء التي كنت أخترعها وأصدقها وألعبها. تنهدت وسلكت طريقها عائدة على الممر ومنه إلى K K الاسم الغامض الغريب.

بدا K K على حالته المعتادة من سوء النظام. لم تزل "**ماتيلدا**" تبدو

مهجورة ومرفوضة إلا أن شيئين آخرين لفتا انتباه "**توبنس**" . كانا من الخزف الصيني .. مقعدان من الخزف الصيني يطوقهما شكلان لإوزتين عراقيتين بيضاوين. أحد المقعدين باللون الأزرق القاتم والآخر باللون الأزرق الزاهي. قالت "**توبنس**" :

– من المؤكد أنني رأيت أشياء كهذه من قبل عندما كنت صغيرة. كانت توضع في الشرفات. كان لإحدى عماتي مقعدان. كنا نسمي أحدهما "**أكسفورد**" والآخر "**كمبريدج**" . يشبهان هذين تمامًا. لكن كان يحيط بهما بطَّتان .. لا إوزتان. وكان بهما هذا الشيء الغريب ذاته بالمقعد. ذلك الثقب الشبيه بحرف S الذي يمكن وضع الأشياء بداخله. نعم. أرى أن أطلب من "**إيزاك**" إخراج هذين المقعدين من هنا وغسلهما جيداً حتى يمكننا وضعهما في الشرفة ونستمتع بهما عندما تتحسن أحوال الطقس. استدارت وبدأت تسرع نحو الباب. تعلقت قدمها بمهمزة "**ماتيلدا**" الناتئة. فصاحت:

– يا إلهي! ما هذا الذي فعلته؟ كان ما فعلته أن تعلقت قدمها بالمقعد الخزفي ذي اللون الأزرق القاتم فهوى على الأرض وتهشم. قالت:

– لقد قتلت "**أكسفورد**" الآن. ولابد لنا من أن نكتفي بـ"**كمبريدج**" . لا أعتقد أنه من الممكن جمع أشلاء "**أكسفورد**" مرة أخرى، فالقطع صغيرة جداً.

تنهدت متسائلة عما كان "**تومي**" يفعله في تلك اللحظة. كان "**تومي**" بصحبة عدد من الأصدقاء يتبادل معهم الذكريات. قال العقيد "**أتكنسون**" :

– العالم غريب في هذه الأيام. سمعت أنك و .. ما اسمها "**برودنس**" .. لا، لقد أطلقت عليها اسم تدليل ما، نعم.. "**توبنس**" .. هذا صحيح. سمعت أنكما قد انتقلتما لتعيشا في الريف. في مكان ما قريب من"**هولوكوي**" أتساءل ما الذي أخذك إلى هناك. سبب معين؟ فقال "**تومي**" :

– وجدنا أن هذا المنزل رخيص الثمن – إلى حد ما.

– هذا من دواعي حسن الحظ. ما اسمه؟ لابد أن تعطيني العنوان.

– أعتقد أنه من الممكن تسميته "**مستجم الأرز**" لأن به شجرة أرز جميلة جداً. اسمه الأصلي هو "**الغار**" ولكنه من مخلفات العصر الفيكتوري .. أليس كذلك؟

– "**الغار**" .. "**هولوكوي**". لكن ما الذي أنت بصدده؟ ما الذي تفعله حاليا؟ نظر "**تومي**" إلى الوجه العجوز ذي الشارب الأبيض القصير الذي فاجأه بقوله:

– أنت بصدد شيء ما. ألست كذلك؟ هل تعمل في خدمة بلدك ثانية؟ فقال "**تومي**":

– كبر سني لا يسمح لي بذلك. فأنا متقاعد عن مثل هذه المهام.

– آه. إنني لأتساءل الآن. هذا ما أنت معتاد أن تقوله دائما. ربما أجبرت على أن تقول هذا. فكما تعلم هناك الكثير مما لم يكشف عنه في تلك القضية. سأل "**تومي**":

– أية قضية؟

– أتوقع أن تكون قد قرأت عنها أو سمعت عنها. فضيحة "**كاردنجتون**". التي أتت بعد ذلك الموضوع الآخر .. ما يعرف بالخطابات وموضوع غواصة "**إملين جونسون**" فقال "**تومي**":

– تذكرت الآن شيئًا ما لكن بقدر من الغموض.

– لم يكن موضوع الغواصة بالفعل هو الذي لفت الانتباه إلى القضية برمتها. وكانت تلك الخطابات التي كشفت عن كل شيء على الصعيد السياسي. نعم. الخطابات. لو كانوا قد تمكنوا من الحصول عليها لكان الوضع قد اختلف، ولكانت قد لفتت الأنظار إلى عدد من الشخصيات التي كانت آنذاك موضع كامل الثقة بالحكومة. غريب أن تحدث هذه الأمور .. أليس كذلك؟ الخَوَنة في وسط الناس موضع الثقة دائماً، وشخصيات رائعة دائماً وآخر من تحوم حولهم الشبهات دائماً .. والكثير من كل هذا لم يكشف عنه

قط. طرف الرجل بعينه ثم استطرد قائلاً:

- ربما يكون قد بُعث بك إلى هنا حتى تلقي نظرة إلى المكان يا صديقي؟

فسأل "**تومي**":

- ألقي نظرة إلى ماذا؟

- حسنا. هذا المنزل الذي لك. "**الغار**" .. هل هذا اسمه؟ كانت هناك نكات سخيفة عن "**الغار**" في بعض الأحيان. لعلمك الخاص. لقد قام رجال الأمن وغيرهم ببحث دقيق. ظنوا أن بمكان ما من البيت يوجد دليل ما قوي. هناك من قال إنه قد أرسل إلى خارج البلاد .. إلى "**إيطاليا**" مثلا .. قبل أن يتغير قاطنو المنزل تمامًا. ولكن آخرين يرون أنه ربما يكون مخبأ هناك في مكان ما من هذا الجزء من العالم؛ لأنه من نوعية المنازل المشتملة على غرف تحت سطح الأرض وعلى أحجار لوحية وما إلى ذلك. والآن يا "**تومي**" يراودني إحساس بأنك تزاول نشاطك المهني من جديد.

- أؤكد لك أنني لا أفعل شيئًا من هذا في هذه الأيام.

- حسنا. هذا ما كنت أظنه عنك عندما كنت في المكان الآخر. في بدايات الحرب الأخيرة. أتذكر.. عندما التقيت بذلك الرجل الألماني بطريق المصادفة. هو والمرأة التي كانت تحمل كتب أناشيد الأطفال. نعم. مهمة شاقة. وربما قد وضعوك على مسار آخر الآن. فقال "**تومي**":

- لا شيء من هذا. لا ينبغي أن تشغل رأسك بكل هذه الأفكار؛ فقد أصبحت الآن رجلاً مسنًّا.

- أنت عجوز داهية. أراهن على أنك أفضل من كثيرين من الشباب المشتغلين بهذه المهنة. تجلس في مكانك بادي البراءة ولكنني أعتقد أنه لا ينبغي أن أطرح عليك أسئلة. لا ينبغي أن أطلب منك البوح بأسرار الدولة .. أليس كذلك؟ على أية حال كن حريصًا على زوجتك. فهي من النوعية المتهورة. وقد نجت بمعجزة أيام قضية الـ N أو الـ M الماضية. فقال "**تومي**":

- أعتقد أن اهتمام "**توبنس**" منصب تمامًا على قِدَم المكان بوجه عام ..

على من عاشوا بالمنزل وأين وعلى صور من كانوا يعيشون بالمنزل وكل هذه الأمور. هذا والتخطيط لعمل الحديقة. هذا كل ما يهمنا في هذه الأيام. الحدائق. الحدائق وكتالوجات الشتلات والنباتات الأخرى.

– ربما أصدق ما تقول لو أن عاماً قد انقضى ولم أسمع بحدوث شيء مثير. ولكنني أعرفك يا "**بيريسفورد**". وأعرف سيدتنا العزيزة زوجتك أيضاً. أنتما معاً زوجان رائعان وأراهن على أنكما سوف تتوصلان إلى شيء ما. أؤكد لك أنه إذا ظهرت تلك الأوراق فسيكون لذلك أثر عظيم جداً في الجبهة السياسية وأن عدداً من الشخصيات لن تستريح إلى ذلك. هذا أمر مؤكد. وهؤلاء الذين لن يسرهم هذا الحدث يعتبرون الآن أعمدة الاستقامة! ولكن البعض يرى أنهم خطرون. تذكر هذا. إنهم خطرون، وغير الخطرين.. على صلة وثيقة بأولئك الخطرين؛ لهذا ينبغي أن تكون حذراً وأن تجعل زوجتك تتوخى الحذر أيضاً. قال "**تومي**":

– تشعرني أفكارك بإثارة حقيقية.

– لا بأس في أن تشعر بالإثارة على أن تهتم بالسيدة "**توبنس**". أنا مغرم بها جداً. فهي فتاة ظريفة. كانت كذلك دائماً ولا تزال. فقال "**تومي**":

– فتاة بالكاد.

– لا تقل هذا عن زوجتك. لا تعتَد الحديث عنها بهذا النحو. إنها امرأة نادرة. وإني مقدر إحساسك بتفوقها عليك في المجال البحثي. وربما هي تقتفي أثر شيء ما في هذا اليوم.

– لا أعتقد ذلك. الاحتمال الأرجح أن تكون قد ذهبت لتناول الشاي مع سيدة عجوز.

– حسناً. يمكن لأمثال هذه السيدة العجوز مدّها بمعلومات قيمة. السيدات المسنات والأطفال في سن الخامسة. جميع الشخصيات غير المحتملة تخرج أحياناً بحقيقة لم يحلم أحد بها. ويمكنني أن أروي لك الكثير عن ذلك.

– أنا واثق بأنه يمكنك يا سيادة "**العقيد**".

– حسنا. لا ينبغي إفشاء الأسرار. وهز العقيد "**أتكنسون**" رأسه

*****

نظر "**تومي**" في طريق عودته إلى البيت من نافذة عربة السكك الحديدية، وراقب الريف المتراجع مسرعًا. قال محدثًا نفسه:

- إنني لأتساءل .. أتساءل بحق . ذلك الصديق القديم .. دائمًا على علم. يعلم كل شيء. لكن ماذا من الممكن أن يكون هناك مما له أهمية الآن؟ كل هذا في الماضي.. أعني أن لا شيء هناك، من غير الممكن أن يكون هناك شيء ما تركته الحرب. ليس في هذه الأيام.

ثم تساءل. حلّت أفكار جديدة محل أخرى قديمة .. أفكار السوق المشترك. في مكان ما في عقله الباطن وليس الواعي؛ لأن هناك أحفادًا وأبناء إخوة وأخوات، وأجيالًا جديدة، وأفرادًا أصغر سنًّا في الأُسر كانت لهم أهمية دائمًا وأفضلية على غيرهم، وتبؤوا مكانات تأثير ونفوذ؛ لأنهم ولدوا ليكونوا على ماهم عليه، وإذا حدث أنهم لم يبدوا ولاءً فمن الممكن الاتصال بهم فيؤمنوا بعقائد جديدة أو بعقائد قديمة تم إحياؤها، كيفما يحلو لك التعبير عنها. كانت "**إنجلترا**" في حالة من الغرابة، حالة مختلفة عما كانت عليه. أم أنها كانت دائمًا على ذات الحال حقيقة؟ كان هناك دائمًا قدر من الوحل الأسود أسفل السطح الأملس. لم يكن هناك ماء صافٍ حتى الحصى، حتى القواقع المستقرة في قاع البحر. كان هناك شيء ما متحرّك ، شيء بطيء الحركة أو شبه راكد، في موقع ما، شيء كان لابد الاهتداء إليه وقمعه. لكن من المؤكد أن هذا لم يكن في مكان مثل "**هولوكوي**" هذه البقعة المتبقية على ما كانت عليه. نشأت في بادئ الأمر كقرية لصيد الأسماك ثم تطورت لتصبح "**ريفييرا**" إنجليزية ... ثم لتتحول الآن إلى مجرد منتجع صيفي يزدحم خلال شهر آب (أغسطس). فقد أصبح الناس الآن يفضلون رحلات الصفقات الشاملة إلى الخارج.

*****

قالت "**توبنس**" في تلك الليلة وهي تغادر مائدة العشاء وتتوجه إلى الحجرة

الأخرى لتناول القهوة:

– حسنا. هل استمتعت بوقتك أم لم تستمتع به؟ وكيف حال جميع أصدقائك؟ أجاب "**تومي**":

– كعهدي بهم إلى حد بعيد. وكيف كان لقاؤك بصديقتك العجوز؟ فقالت "**توبنس**":

– لقد حضر المختص بإصلاح "البيانو". ثم سقطت الأمطار بعد الظهر فلم أذهب لزيارتها. أمر مؤسف. فربما من الممكن أن تقول هذه السيدة أشياء مثيرة للاهتمام. قال "**تومي**":

– لقد دهشت جدًّا. ما رأيك في هذا المكان بحق يا "**توبنس**"؟

– ماذا تعني .. المنزل؟

– لا. لا أعني المنزل. أعتقد أن ما أعنيه هو "**هولوكوي**".

– حسنا. أعتقد أنه مكان جميل.

– ماذا تعنين بأنه جميل؟

– إنها كلمة جيدة في الواقع. وهي كلمة يستخف بها المرء وإن كنت لا أرى سببًا للاستخفاف بها. أفترض أن المكان الجميل هو المكان الذي لا تحدث فيه أمور لا تحب لها أن تحدث ويسعدك ألا تحدث.

– ربما كان هذا بسبب تقدمنا في العمر.

– لا. لا أعتقد أن هذا هو السبب ولكن السبب هو أنه جميل أن تعرف أن هناك أماكن لا تحدث فيها أمور، وإن كان لابد لي من أن أقول إن شيئًا ما كاد يحدث في هذا اليوم.

– ماذا تعنين بقولك كاد أن يحدث؟ هل تورطت في فعل شيء أحمق يا "**توبنس**"؟

– لا. بكل تأكيد.

– ماذا تعنين إذن؟

– ما أعنيه هو لوح الزجاج الذي بأعلى المستنبت، كان يهتز قليلاً منذ أيام،

انخلع من موضعه وكاد يسقط فوق رأسي. كان من الممكن أن يمزقني إلى إرب. فقال "**تومي**" وهو يتأملها:

– واضح أنه لم يمزقك إلى إرب.

– لا. كنت سعيدة الحظ ومع ذلك أفزعني.

– ينبغي أن نستدعي صديقنا العجوز الذي يأتي ويهتم بمثل هذه الأمور .. ما اسمه؟ "**إيزاك**"، أليس كذلك؟ ينبغي أن نكلفه بفحص بعض ألواح الزجاج الأخرى .. أعني لأننا لا نريد أن يصيبك مكروه يا "**توبنس**":

– أعتقد أنك عندما تشتري منزلاً قديمًا لابد أن يكون به عيب ما.

– هل تعتقدين أن هناك عيبًا في هذا المنزل؟

– ما الذي تعنيه بأن يكون بهذا المنزل عيب ما؟

– حسنا .. لقد سمعت شيئًا غريبًا – إلى حد ما – بشأنه اليوم.

– ماذا .. شيء غريب بشأن هذا المنزل؟

– نعم. فقالت "**توبنس**":

– هذا يبدو مستحيلاً في الواقع يا "**تومي**".

– ولماذا يبدو هذا مستحيلاً؟ لأنه يبدو ظريفًا ومحفوفًا بالبراءة؟ جيد الطلاء والتجميل؟

– لا. كونه ظريفًا وجيد الطلاء والتجميل، هذا كله راجع إلى ما فعلناه به. كان يبدو متآكلاً وصدئًا عندما اشتريناه.

– لهذا السبب كان رخيص الثمن بالتأكيد. فقالت "**توبنس**":

– تبدو غريبًا يا "**تومي**". ماذا هناك بشأن المنزل؟

– إنه صديقنا "**موستاشيو مونتي**".

– نعم هذا الصديق العزيز. هل كلفك بإبلاغي تحياته؟

– نعم، فعل ذلك بالتأكيد. طلب مني أن أنصحك بأن تعتني بنفسك ونصحني أنا بأن أعتني بك.

– هذا ما يفعله دائماً وإن كنت لا أدري لماذا ينبغي أن أعتني بنفسي هنا.
– حسنا. يبدو أنه من نوعية الأماكن التي قد يكون من المهم أن تعتني بنفسك فيها.
– ما الذي تعنيه بهذا يا "**تومي**"؟
– "**توبنس**". ما الذي يتجه إليه تفكيرك إن قلت لك إنه قد اقترح أو ألمح إلى أننا هنا ليس كفردين متقاعدين بل كفردين مكلفين بالقيام بمهمة معينة وأننا قد عدنا مرة أخرى إلى نشاطنا السابق. بُعث بنا إلى هنا من قبل قوات الأمن والنظام للكشف عن شيء ما لاكتشاف ما إذا كان العيب في هذا المكان.
– حسنا يا "**تومي**". لا أدري ما إذا كنت تحلم أم أن "**موستاشيو مونتي**" هو الذي كان يحلم إذا كان هو الذي أوحى إليك بذلك.
– نعم. هو الذي قال ذلك. رأى أننا هنا في مهمة معينة للكشف عن شيء ما.
– للكشف عن شيء ما؟ من أية نوعية من الأشياء؟
– شيء من الممكن أن يكون مُخبأ بهذا المنزل.
– شيء من الممكن أن يكون مخبأ بهذا المنزل! "**تومي**" .. هل فقدت صوابك أم فقد هو صوابه؟
– حسناً ،كنت أميل إلى اعتقاد أنه قد فقد صوابه ولكنني لست واثقًا بذلك تماما.
– ماذا من الممكن أن يكون هناك ليعثر عليه بهذا المنزل؟
– شيء ما أفترض أنه قد تمت تخبئته هنا في يوم ما.
– كنز مدفون .. أهذا ما تتحدث عنه؟ جواهر تاج روسي مخبأة بالدرك الأسفل .. شيء من هذا القبيل؟
– لا. ليس كنزاً. شيء ما من الممكن أن يمثل خطراً على شخصية معينة.
فقالت "**توبنس**":
– حسنًا. هذا قديم جدًّا.

– لماذا؟ هل وجدت شيئًا؟

– لا . لم أجد شيئًا بالتأكيد . لكن يبدو أنه كانت هناك فضيحة بشأن هذا المنزل منذ فترة طويلة جدًا. لا أعني أن أحدًا يتذكرها بالفعل ولكنها من النوعية التي تقصها الجدات على الأحفاد أو تلوكها ألسنة الخدم. وواقع الأمر أن لـ" **بياتريس** " صديقة يبدو أنها تعلم شيئًا عنها وعن تورط " **ماري جوردان** " فيها . كان الموضوع محاطًا بشديد التكتم.

– هل تتصورين أشياء يا " **توبنس** " ؟ هل عدت إلى أيام شبابك المجيدة، إلى الأيام التي أعطى أحدهم فيها فتاة على النهر شيئًا ما غامضًا، يوم أن كنا مغامرين نقتفي أثر السيد " **براون** " الغامض؟

– يا إلهي! كان هذا منذ زمن بعيد يا " **تومي** " . عندما كنا نصف أنفسنا بالمغامرين. لا يبدو هذا حقيقيًا الآن، أليس كذلك؟

– لا . لا يبدو كذلك . . ألبتة . ولكنه كان حقيقيًا . . نعم. كان حقيقيًا تمامًا . عدد كبير جدًا من الأشياء حقيقي على الرغم من أنه لا يمكنك إقناع نفسك بتصديقه . لابد أن ذلك كان منذ ستين أو سبعين عامًا . أو أكثر من ذلك أيضًا .

– ما الذي قاله " **مونتي** " تحديدًا؟ فقال " **تومي** " :

– خطابات أو أوراق من نوع ما. شيء كان من الممكن أن يوجد أو أوجد بالفعل اضطرابًا سياسيًا عظيمًا من نوع ما. شخصية ما في موقع نفوذ وما كان ينبغي لها أن تتبوأ مثل هذا المنصب، وكانت هناك خطابات أو أوراق أو شيء ما كان من الممكن أن يقضي عليها سياسيًا إذا ما ظهر. جميع أنواع المؤامرات وجميعها حدثت منذ أعوام. فسألت " **توبنس** " :

– في زمن " **ماري جوردان** " ؟ لا يبدو هذا محتملاً أبدًا. " **تومي** " .. لابد أن تكون قد استغرقت في النوم وأنت في طريق عودتك بالقطار وحلمت كل هذا. فقال " **تومي** " :

– حسنًا . . ربما أكون قد فعلت ذلك فمن المؤكد أن هذا لا يبدو محتملاً .

فقالت "**توبنس**" :

– ومع ذلك أفترض أنه لابد لنا من أن نلقي نظرة إلى أرجاء المنزل طالما نعيش فيه. جالت بنظرها في أرجاء الحجرة ثم استطردت قائلة :

– لا أعتقد أن شيئًا ما من الممكن أن يكون مخبأً هنا. ما رأيك أنت يا "**تومي**" ؟

– لا يبدو لي أن هذا المنزل من النوعية التي يحتمل أن يكون قد أُخفيَ به شيء. فقد عاش به أناس كثيرون منذ تلك الأيام.

– نعم. عائلة بعد عائلة طبقًا لما فهمته. أفترض أن ذلك الشيء من الممكن أن يكون قد خُبئ في العلية أو في الدرك الأسفل أو ربما دُفن أسفل أرضية السقيفة في أي مكان هناك. أردفت "**توبنس**" :

– سيكون الأمر ممتعًا في جميع الأحوال. ربما عندما لا يكون لدينا شيء آخر نفعله ونعاني آلام الظهر بعد غرس شتلات التيوليب من الممكن أن نلقي نظرة إلى أرجاء المكان. لمجرد التفكير في الموضوع. وعلى أن نبدأ من نقطة إذا أردت أن أخبئ شيئًا ما فأين أختار أن أضعه، وأين يكون من المحتمل أن يظل بلا اكتشاف؟ فقال "**تومي**" :

– لا أظن أن أي شيء من الممكن أن يظل بلا اكتشاف هنا، في ظل توافد البستانيين والناس على المكان وفي ظل سكنى عدد من العائلات به وسماسرة العقارات وكل هذه الأنواع من الشخصيات التي تأتي إلى المنزل.

– حسنا .. من أين لك أن تعلم؟ قد يكون هذا الشيء بداخل إبريق شاي بمكان ما. ونهضت "**توبنس**" على قدميها وتوجهت إلى الرف ثم ارتقت مقعداً وأنزلت إبريق شاي. رفعت غطاءه ونظرت إلى داخله ثم قالت :

– لا شيء بداخله. فقال "**تومي**" :

– مكان غير محتملٍ أبداً. قالت "**توبنس**" بنبرة آملة أكثر منها جزعة :

– هل تظن أن أحداً ما كان يحاول قتلي فخلع ذلك اللوح الزجاجي بمنور المستنبت حتى يسقط عليّ؟ فقال "**تومي**" :

– أمر غير محتمل ألبتة. وربما كان "**إيزاك**" المقصود بهذه المحاولة. فقالت "**توبنس**":

– فكرة مخيبة للآمال. كنت أود أن أشعر بأنني قد نجوت بأعجوبة.

– حسنًا. من الأفضل أن تعتني بنفسك. وستكونين موضع اهتمامي أنا أيضًا. فقالت "**توبنس**":

– أنت دائم الاهتمام بي بدرجة مفرطة. فقال "**تومي**":

– جميل مني أن أفعل ذلك. ينبغي أن تكوني سعيدة بأن زوجك يهتم بك بهذا القدر. سألت "**توبنس**":

– لم يحاول أحد أن يطلق عليك الرصاص وأنت في القطار أو أن يخرجه عن القضبان أو أي شيء كهذا، أليس كذلك؟ فقال "**تومي**":

– لا. لكن من الأفضل أن نتأكد من سلامة مكابح السيارة قبل أن نركبها في المرة المقبلة. من المؤكد أن هذا كله مضحك جدًا. فقالت "**توبنس**":

– إنه مضحك بالتأكيد. مضحك بكل المقاييس. ومع ذلك..

– ومع ذلك ماذا؟

– إنه ممتع أن نفكر في أشياء كهذه. سأل "**تومي**":

– تعنين أن "**ألكسندر**" قتل لأنه كان يعرف شيئًا ما؟ كان يعلم شيئًا عمَّن قتل "**ماري جوردان**". كتب: "إنه واحد منا". ينبغي أن نعلم كل شيء عمَّن يعنيه بـ"منا". إنه هنا بهذا البيت في الماضي. إنها جريمة ينبغي أن نحل لغزها، أن نعود إلى الماضي حتى نتمكن من حلّه .. إلى حيث حدثت هذه الجريمة وأسباب وقوعها. وهذا أمر لم نحاول قط أن نفعله من قبل.

*****

- 13 -
مناهج البحث

- أين كنت يا "**توبنس**"؟ هكذا سأل زوجها عندما عاد إلى البيت في اليوم التالي. أجابت "**توبنس**":

- الدرك الأسفل هو آخر مكان كنت فيه. فقال "**تومي**":

- هذا واضح. وأراه جيداً. هل تعلمين أن شعرك مغطى بخيوط العنكبوت؟

- لابد أن يكون كذلك بكل تأكيد؛ فالدرك الأسفل مملوء بهذه الخيوط. ولم أعثر على أي شيء هناك. هناك على الأقل عدد من زجاجات الرَّم (شراب مسكر) الأحمر. فقال "**تومي**":

- الرَّم الأحمر؟ هذا مثير للانتباه. فقالت "**توبنس**":

- حقيقة؟ هل يُشرب؟ يبدو لي أن هذا بعيد الاحتمال. فقال "**تومي**":

- لا. أعتقد أن الناس كانوا يضعونه على شعورهم. أعني الرجال لا النساء. فقالت "**توبنس**":

- أعتقد أنك محق. أتذكر أن عمي .. نعم كان أحد أعمامي يستخدم هذا الرّم. اعتاد أحد أصدقائه أن يحضره إليه من "**أمريكا**". فقال "**تومي**":

- حقيقة؟ هذا مثير للاهتمام جدًّا. فقالت "**توبنس**":

- لا أعتقد أنه مثير بصفة خاصة. فلا ينطوي على أية مساعدة لنا بأي حال من الأحوال. ما أعنيه أنه لا يمكن إخفاء أي شيء بداخل إحدى هذه الزجاجات.

- هذا إذاً ما كنت تفعلينه. فقالت "**توبنس**":

- كان لابد لي من أن أبدأ من مكان ما. فمن الممكن - لو صدق قول صديقك - أن يكون شيء ما مخبأ في هذا المنزل وإن كان من الصعب تصورٌ أين من الممكن أن يكون أو ماذا من الممكن أن يكون؛ لأنه عندما يبيع المرء

منزلاً أو يموت أو يغادره يتم إخلاء المنزل على أثر ذلك. أليس هذا صحيحًا؟ أعني أن من يرثه يخرج الأثاث منه ويبيعه أو إذا تركه به يدخله الساكن التالي ويقوم ببيعه وبذلك يكون أي شيء باقٍ به الآن من متعلقات المستأجر ما قبل الأخير ومن المؤكد ألا يكون ملكًا لأحدٍ أسبق منه.

– لماذا إذن يرغب أي إنسان في الإضرار بك أو الإضرار بي أو يحاول حملنا على الانتقال من هذا المنزل ما لم يكن هناك شيء هنا لا يريدوننا أن نعثر عليه؟ فقالت "**توبنس**" :

– كل هذا من تفكيرك، وقد لا يكون له أدنى أساس من الصحة. على أية حال، لم يكن هذا اليوم ضائعًا تمامًا. فقد عثرت على بعض الأشياء.

– أي منها ذو صلة بـ"**ماري جوردان**" ؟

– ليس تحديداً. ليس بالدرك الأسفل شيء يُذكر. هناك عدد قليل من الأشياء المتعلقة بالتصوير ... على حد اعتقادي. مصباح تحميض أو شيء من هذا القبيل مما كانوا يستخدمونه قديمًا وبه زجاج أحمر، ثم زجاجات الرَّم الأحمر، لكن لم يكن هناك أي حجر لوحي يبدو وكأنه من الممكن خلعه والعثور على شيء أسفله. كانت هناك بعض الحقائب البالية وبعض الصناديق الصفيحية وحقائب الملابس القديمة وجميعها لا تصلح لوضع أي شيء بداخلها؛ لأنها من الممكن أن تتفكك إذا ما رُكلت بالقدم، فهي منتهية تمامًا. فقال "**تومي**" :

– إنني آسف؛ لأنك لم تعثري على شيء مُرضٍ.

– حسنًا. كانت هناك بعض الأشياء المثيرة للاهتمام. قلت لنفسي – ينبغي أن يقول المرء شيئًا لنفسه – من الأفضل أن أتوجه إلى الطابق الأعلى الآن وأتخلص من خيوط العنكبوت قبل أن أسترسل في الحديث. فقال "**تومي**" :

– ربما كان هذا أفضل؛ فسوف أستمتع بالنظر إليك بقدر أكبر عندما تفعلين ذلك. فقالت "**توبنس**" :

– إذا رغبت في الاستمتاع بإحساس العاشق الولهان ينبغي أن تنظر إليّ

دائماً آخذاً في اعتبارك أن زوجتك مهما تقدم بها العمر لا تزال تبدو فاتنة في نظرك. فقال "**تومي**" :

– "**توبنس**" يا حبيبتي، تبدين غاية في الفتنة لي وهناك كعكة من خيوط العنكبوت متدلية فوق أذنك اليسرى تزيدك جاذبية؛ لأنها أشبه بخصلة الشعر الملتفة التي تظهر بها الإمبراطورة "**أوجيني**"، في بعض صورها، والتي تتدلى بمحاذاة زاوية عنقها. ويبدو أن بداخل كعكتك أنت عنكبوتة أيضاً. فصاحت "**توبنس**" :

– آه. لا أحب هذا.

دفعت بخيوط العنكبوت بعيداً عن أذنها وتوجهت إلى الطابق الأعلى ثم عادت لتنضم إلى "**تومي**" في وقت لاحق. كانت هناك كأس في انتظارها. تأملتها بذرة شك.

– لا تحاول أن تجعلني أشرب الرَّم الأحمر أليس كذلك؟

– لا. لا أظن أنني أنا ذاتي أريد أن أشرب الرَّم الأحمر. فقالت "**توبنس**" :

– لو سمحت لي أود أن أكمل الحديث الذي بدأته من قبل. فقال "**تومي**" :

– بكل سرور. كنت ستفعلين ذلك في جميع الأحوال ولكنني أحب أن أشعر بأنك تفعلين ذلك بناءً على إلحاح مني.

– حسنا .. قلت لنفسي : إذا أردت أن أخبئ شيئًا في هذا المنزل ولا أريد أن يعثر عليه أحد غيري فأي مكان كنت أختار لهذا الغرض؟ فقال "**تومي**" :

– نعم. منطقي تماماً.

– فكرت .. أية أماكن هناك من الممكن أن يخفي المرء فيها أشياء؟ أحد هذه الأماكن هو "**ماتيلدا**" بالتأكيد. فقال "**تومي**" :

– معذرة!

– "**ماتيلدا**". الحصان الهزاز. أخبرتك عنه من قبل. إنه حصان هزاز أمريكي. فقال "**تومي**" :

– يبدو أن أشياء كثيرة جُلبت من "**أمريكا**" . الرَّم الأحمر أيضًا كما ذكرت.

– حسنا.. على أية حال، يوجد بمعدة الحصان الهزاز فتحة وقد أخبرني "**إيزاك**" بذلك وبأن قدرًا كبيرًا من الأوراق والأشياء الورقية القديمة كانت بها. لا شيء مهم منها. لكن على أية حال هذا هو نوع الأماكن التي من الممكن أن يُخفي أي إنسان فيها شيئًا. أليس كذلك؟.

– ممكن جدًا.

– و"**الحب الصادق**" أيضًا. أعدت فحص "**الحب الصادق**" ثانية. له مقعد بديل قديم لكن لم يكن به شيء. كما لم تكن هناك أية أشياء شخصية تخص أي فرد؛ لهذا فكرت ثانية – لم يزل هناك صندوق الكتب والكتب. يخبئ الناس الأشياء بداخل الكتب. ولم ننته من ترتيب حجرة الكتب بالطابق الأعلى تمامًا. أليس كذلك؟ فقال "**تومي**" :

– ظننت أننا قد انتهينا منها.

– ليس تمامًا. فما زال هناك الرف الأسفل.

– لا يحتاج هذا إلى جهد. ما أعنيه هو أن الواحد منا ليس محتاجًا إلى إحضار سلّم وإنزال الكتب من فوق الرف.

– هذا صحيح. لهذا ذهبت إلى هناك وجلست فوق أرضية الحجرة وألقيت نظرة إلى ما بالرف الأسفل. العدد الأكبر من الكتب يحتوي على عظات دينية قديمة. لم أر لها أدنى أهمية. ولم يكن بداخل هذه الكتب أي شيء. وضعت جميع هذه الكتب على الأرض ثم اكتشفت شيئًا ما. إنه في زمن ما أوجد أحدهم فتحة بغلاف الكتاب وأدخل بها جميع أنواع الأشياء. هذه الكتب تكاد تكون ممزقة تمامًا. كان من بينها كتاب كبير الحجم – إلى حد ما. ذو غلاف ورقي بني اللون. أخرجته لأتصفحه. وماذا تعتقد أنه كان؟

– ليس لديَّ أدنى فكرة . أولى طبعات "**روبنسون كروزو**" أو أي شيء قيِّم كهذا؟

– لا . إنه كتاب تواريخ الميلاد .

– كتاب تواريخ الميلاد . وما ذلك؟

– اعتاد الناس استخدام مثل هذه الكتب . يعود تاريخه إلى زمن بعيد . أيام أن عاش آل "**باركنسون**" بهذا المنزل – على حد تقديري . وربما قبل ذلك . بدا متهالكًا وممزقًا وغير جدير بالاحتفاظ به ولا أعتقد أن أحدًا قد اهتم به، ولكنه قديم جدًّا فظننت أنه من الممكن أن أجد فيه شيئًا .

– تعنين أنه من الممكن أن يكون أحد قد وضع بداخله شيئًا .

– نعم . لكن أحدًا لم يفعل ذلك بالتأكيد . ليس الأمر بمثل هذه البساطة . ومع ذلك تصفحته بعناية . لم أنته من تصفحه بعد . من الممكن أن يشتمل على أسماء مهمة يمكن من خلالها الاهتداء إلى شيء ما . فقال "**تومي**" بنبرة مفتقرة إلى الحماس :

– ربما .

– حسنا . هذا شيء . وهو الشيء الوحيد الذي صادفني في فحصي لهذه الكتب . ولم يكن هناك شيء آخر ذو قيمة بالرف الأسفل . والشيء الآخر الذي يستحق البحث فيه هو الخزائن . فقال "**تومي**" :

– وماذا عن الأثاث؟ هناك أشياء كثيرة مثل الأدراج المسحورة بداخل قطع الأثاث وما إلى ذلك .

– لا يا "**تومي**" . إنك لا تقيِّم الأمور على الوجه الصحيح . أعني أن جميع قطع الأثاث الموجودة بالمنزل الآن ملك لنا . فقد انتقلنا إلى منزل خاوٍ وأتينا معنا بالأثاث الخاص بنا . والشيء الوحيد الذي وجدناه هنا من الأزمنة البعيدة هو تلك الأشياء الموجودة بالموقع المسمى K K . لعب أطفال صدئة ومقاعد حديقة قديمة . أعني أن لا وجود لأثاث قديم هنا بالمنزل . آخر من عاش به حمله معه أو أرسله ليباع . وقد عاش بهذا المنزل – طبقًا لتقديري – أناس كثيرون منذ آل "**باركنسون**" ؛ وبذلك لن يكون هنا أي شيء باقٍ من متعلقاتهم . ولكنني وجدت شيئًا ما . قد يعني شيئًا يساعدنا .

– وما ذلك؟

– بطاقات قوائم طعام صينية.

– بطاقات قوائم طعام صينية؟

– نعم. بداخل تلك الخزانة التي لم نتمكن من فتحها. تلك المجاورة لموضع حفظ الأطعمة. كان مفتاحها مفقوداً منهم. وجدت هذا المفتاح بداخل صندوق قديم في K K. وضعت عليه قليلاً من الزيت وتمكنت من فتح باب الخزانة. ولم يكن بداخلها أي شيء. كانت مجرد خزانة قذرة بداخلها بعض قطع الصيني المكسورة. أعتقد أنها من بقايا آخر من عاشوا بهذا البيت، لكن كانت بالرف الأعلى كومة صغيرة من قوائم الطعام الصيني التي اعتاد الناس في العصر الفيكتوري تقديمها في الحفلات. غريبة تلك الأصناف التي كانوا يقدمونها .. وجبات شهية جداً. سأقرأ عليك بعضاً منها بعدما ننتهي من تناول العشاء. مدهشة. تتألف من صنفي حساء أحدهما شفاف والآخر سميك القوام، وفوق ذلك صنفان من الأسماك، ثم لونين آخرين من الطعام بين الصنفين الرئيسيين، ثم السلطة أو شيء من هذا القبيل، يتبع ذلك شريحة اللحم المشوي وبعدها.. لا أذكر تماماً أعتقد أنه الآيس كريم وبعد كل ذلك سلطة الكركدن (جراد البحر). هل تصدق ذلك؟ فقال "**تومي**" :

– كفى يا "**توبنس**". لا أعتقد أنه يمكنني احتمال المزيد.

– حسنا .. على أية حال .. ظننت أن ذلك من الممكن أن يكون مسلياً. يرجع تاريخها إلى زمن بعيد ماضٍ.

– وما الذي تأملين الحصول عليه من كل هذه الاكتشافات؟

– الشيء الوحيد الممكن الاستفادة منه هو كتاب تواريخ الميلاد. رأيت فيه ذكر شخص يدعى "**وينيفرد موريسون**".

– نعم؟

– أعتقد أن هذا هو اسم السيدة "**جريفين**" قبل الزواج. هذه هي السيدة التي تناولت الشاي معها منذ بضعة أيام. وهي واحدة من أقدم سكان هذه

المنطقة وتتذكر أو تعلم أشياء كثيرة حدثت قبل زمانها. ربما أنها تتذكر أو تكون قد سمعت عن بعض الأسماء الأخرى الواردة بهذا الكتاب. ومن الممكن الحصول على شيء ما مما تعرفه. قال "**تومي**" ولم تزل نبرته مشوبة بقدر من التشكك:

– ربما، ولكنني ما زلت أعتقد... قاطعته "**توبنس**" قائلة:

– مازلت تعتقد ماذا؟ قال "**تومي**":

– لا أدري ماذا أعتقد، لنذهب إلى الفراش وننام. ألا ترين أنه من الأفضل أن نتخلى عن هذا الموضوع كليًّا؟ لماذا نريد أن نعرف من الذي قتل "**ماري جوردان**"؟

– ألا تريد أن تعرف؟ فقال "**تومي**":

– لا. لا أريد. على الأقل .. آه .. أقدِّم أوراق استقالتي. أعترف بأنك قد ورطتني. فسألت "**توبنس**":

– ألم تهتدِ إلى أي شيء؟

– لم يتوفر لديَّ وقت اليوم. ولكنني حصلت على عدد آخر من مصادر المعلومات. كلفت تلك المرأة التي حدثتك عنها .. المرأة الماهرة جداً في الأمور البحثية .. كلفتها ببعض الأمور. قالت "**توبنس**":

– حسنًا جداً ولنأمل الأفضل. كل هذا هراء ولكنه ربما يكون مسليًا. فقال "**تومي**":

– إلا أنني غير متأكد من أنه سيكون مسليًا بالقدر الذي تعتقدينه. فقالت "**توبنس**":

– لا بأس. سنكون قد بذلنا ما في وسعنا. فقال "**تومي**":

– لا تواصلي بذل ما في وسعك بمفردك؛ فهذا ما يزعجني تحديداً عندما لا أكون معك.

*****

- 14 -
السيد "روبنسون"

قال "**تومي**" متنهدًا:

- تُرى ماذا تفعل "**توبنس**" الآن؟

- معذرة. لم أسمع جيدًا ما قلته.

أدار "**تومي**" رأسه لينظر إلى الآنسة "**كولودون**" من قرب. كانت هذه المرأة نحيلة القوام هزيلة ذات شعر رمادي يمر بمرحلة تعاف بطيء من علاج بالبروكسيد استهدف أن يجعلها تبدو أصغر سنًّا وقد أتى هذا الأثر بالفعل. كانت تجرِّب حاليًّا عددًا من درجات اللون الرمادي الرفيعة الذوق مثل الدخاني المضبَّب والأزرق الفولاذي وغير ذلك من درجات اللون المناسبة لآنسة فيما بين الستين والخامسة والستين من العمر تكرِّس نفسها لخدمة الأبحاث. كان وجهها يمثل نوعًا من السمو الزاهد والثقة البالغة بإنجازاتها. قال "**تومي**":

- آه. ليس ثمة شيء في الواقع. مجرد شيء كنت أفكر فيه. كنت أفكر فيه فقط. وما هو؟ هكذا تساءل "**تومي**" وقد حرص في هذه المرة على ألا ينطق بشيء - وما الذي من الممكن أن تكون فاعلة إياه اليوم؟ أراهن على أنه شيء سخيف. تكاد تقتل نفسها بلعبة ذلك الطفل القديمة التي من الممكن أن تتفتت وهي تهبط بها من أعلى التل، ومن المحتمل أن تصاب بكسر ما في موضع أو آخر. يبدو أن الكسور تحدث في منطقة مفصل الورك في هذه الأيام، وإن كنت لا أرى سببًا لأن يكون هذان المفصلان أكثر ضعفًا من أية منطقة أخرى. رأى أن "**توبنس**" تقوم في تلك اللحظة بعمل شيء سخيف أو أحمق وإلا فإنها تفعل شيئًا "قد لا يكون" سخيفًا أو أحمقَ لكن قد يكون بالغ الخطورة. نعم قد يكون خطرًا. كان من الصعب عليه دائمًا أن يبعد "**توبنس**" عن الخطر. لاح بذهنه عدد من أحداث ماضية. وخطرت بباله كلمات اقتباس قالها بصوت مسموع:

بوابة القدر...
لا تمري أسفلها أيتها القافلة
ولا تمري منشدة. هل سمعت ذلك الصمت
حيث نفقت الطيور
ولكن شيئًا ما يغرِّد مثل عصفور؟

وتجاوبت الآنسة "**كولودون**" فورًا، مما أذهل "**تومي**"، مضيفة إلى كلمات الاقتباس بقولها:

– قافلة الموت... كهف الكوارث... حصن الخوف.

دقق "**تومي**" النظر إليها ثم تبين أن الآنسة "**كولودون**" ظنت أنه قد أتاها بمشكلة شعرية مطلوب بحثها، والحصول على كامل المعلومات عن القصيدة الشعرية التي ينتمي إليها اقتباس معين وعن الشاعر الذي أبدعها؛ إذ كانت مشكلة الآنسة "**كولودون**" تكمن في اتساع مجال أبحاثها. قال "**تومي**" معتذرًا:

– كنت أتساءل فقط بشأن زوجتي. فقالت الآنسة "**كولودون**":

– أووه.

رمقت "**تومي**" بنظرة حملت تعبيرًا مختلفا. واستنتجت وجود خلافات زوجية بالبيت ربما سيكون عليها أن تعطيه عنوان أحد مكاتب الاستشارات الزوجية حيث يمكنه أن يبحث عن حل لمشاكله أو أموره الزوجية. أسرع "**تومي**" يقول:

– هل أحرزت أي قدر من النجاح بشأن ذلك الاستفسار الذي تحدثت معك عنه منذ يومين؟

– نعم. لم أواجه صعوبة كبيرة في ذلك؛ فالرجوع إلى "**سومرست هاوس**" مفيد جدًا في جميع هذه الأمور. لا أظن أنه من المحتمل أن يكون هناك أي شيء محدد تريده هناك ولكنني حصلت على أسماء وعناوين، ومواليد وزيجات ووفيات معينة.

– ماذا؟ هل جميعها لـ"**ماري جوردان**" ؟

– "**جوردان**" نعم. إحداها "**ماري**" وأخرى "**ماريا**" وثالثة "**بولي جوردان**" ، وكذلك "**مولي جوردان**" . لا أدري ما إذا كان أي من هذه الأسماء من المحتمل أن يكون ما تريده. هل تسمح بأن أعطيك هذه؟ وناولته ورقة صغيرة مكتوب عليها بالآلة الكاتبة.

– أشكرك. أشكرك شكرًا جزيلاً.

– وهناك بضعة عناوين أيضًا. تلك التي طلبتها مني، ولم يمكنني الاهتداء إلى عنوان العقيد "**دالريمبل**"؛ فالناس يغيرون عناوينهم كثيرًا في هذه الأيام. ومع ذلك أعتقد أنني سوف أتمكن من الحصول على هذه المعلومة في غضون يومين. وهذا هو عنوان الدكتور "**هيزلتاين**"، وهو مقيم حاليًّا في "**سوربيتون**" . فقال "**تومي**" :

– شكرًا جزيلاً. فقد أبدأ به على أية حال.

– استفسارات أخرى؟

– نعم. معي هنا قائمة تضم حوالي ستة استفسارات .. بعضها قد لا يكون ضمن نطاق تخصصك. فقالت الآنسة "**كولودون**" بثقة تامة:

– أنا من يجعل الأمور في نطاق تخصصي. من السهل أن تهتدي أولاً إلى المكان الذي يمكنك أن تجد فيه ما تبحث عنه .. إن لم يكن أسلوب الحديث هذا منطويًا على قدر من الحماقة، ولكنه يفسر حقيقة الأوضاع. أتذكر، منذ زمن طويل، عند بدء اشتغالي بهذه النوعية من الأعمال، أنني تبينت كم كانت إرشادات مكتب استشارات "**سيلفريدج**" مفيدة جدًّا. يمكنك أن تطرح عليهم أكثر الاستفسارات غرابة عن أكثر الأمور غرابة؛ فتجد أنهم قادرون دائمًا على أن يخبروك بشيء عنها أو أن يرشدوك إلى المكان الذي يمكنك الحصول منه على المعلومة المطلوبة بسرعة، ولكن من المؤكد أنهم لا يقومون بهذه النوعية من الإرشادات حاليًّا؛ فالعدد الأكبر من الاستفسارات التي تقدم في هذه الأيام تتعلق بما إذا كنت تريد الانتحار أو أمور كهذه،

والأسئلة القانونية عن الوصايا وعدد كبير من الأمور المتعلقة بالمؤلفين والكُتَّاب، وبالوظائف خارج البلاد ومشاكل الهجرة. نعم. يشمل نشاطي مجالاً عريضًا. فقال "**تومي**" :

– أنا واثق بهذا.

– ومساعدة مدمني الكحوليَّات. هناك عدد كبير من الجمعيات المتخصصة في ذلك. بعضها أفضل بكثير من غيرها. لديَّ قائمة شاملة .. وبعض هذه الجمعيات جديرة بالاعتماد عليها .. فقال "**تومي**" :

– سوف أحرص على أن أتذكر ذلك لو تبينت أنني أميل إلى هذا الاتجاه في أي وقت. وهذا متوقف على مدى نجاحي في هذا اليوم.

– إنني واثقة يا سيد "**بيريسفورد**" بأنني لا أرى أية علامات على وجود مشاكل إدمان الخمور لديك. فقال "**تومي**" :

– لا احمرار بالأنف؟ أجابت الآنسة "**كولودون**" :

– الأمر أكثر سوءًا في حالة النساء. وحملهن على الإقلاع عنها أكثر صعوبة، يعود الرجال إلى تناول الخمور ولكن ليس بشكل ملحوظ، أما بعض النساء فيبدون سعيدات بتناول العصائر بكميات كبيرة ثم في أمسية ما وفي وسط احتفالية يعدن إلى تناول الخمور بشراهة. نظرت إلى ساعة معصمها قائلة :

– ينبغي أن ألحق بموعدي التالي. ينبغي أن أذهب إلى شارع أعلى "**جروزفينر**" . فقال "**تومي**" :

– شكرًا جزيلاً على كل ما قمت به. وفتح الباب بطريقة مهذبة وساعد الآنسة "**كولودون**" على ارتداء معطفها ثم عاد إلى الحجرة قائلاً :

– ينبغي أن أخبر "**توبنس**" في المساء بأن أبحاثنا قد أدَّت بي إلى أن أوحي إلى وكيلة البحث بفكرة أن زوجتي تتناول المسكرات وبأن زواجنا ينهار لهذا السبب. يا إلهي .. ماذا بعد هذا!

بعد هذا كان موعد بأحد المطاعم المعقولة الأسعار بمنطقة طريق محكمة

"**توتنهام**" . قال رجل مسن وهو يقفز من فوق مقعده:

– يا إلهي! لم أكن لأتصور قط. أحمر الشعر "**توم**" . لم أكن لأعرفك. فقال "**تومي**" :

– هذا ممكن. لم يعد بي أي شعر أحمر. أصبحت "**توم**" الشائب الشعر.

– جميعنا هذا الرجل. كيف حال صحتك؟

– على ما كانت عليه دائمًا تقريبًا. تتراجع بالتدريج.

– متى كانت آخر مرة رأيتك فيها؟ منذ عامين؟ منذ ثمانية أعوام؟ أم منذ أحد عشر عاما؟ فقال "**تومي**" :

– إنك تبالغ قليلا. فقد التقينا في الخريف الماضي على مائدة العشاء بمطعم "**هرّة مالطة**" ألا تذكر؟

– آه. هذا صحيح. من المؤسف أنه انهار. كنت أتوقع له هذا: البناء رائع لكن الطعام كان سيئًا. حسنا.. ماذا أنت فاعل في هذه الأيام يا صديقي؟ لا تزال مشغولاً بقضايا التجسس؟ فقال "**تومي**" :

– لا. لا شأن لي بهذه الأمور.

– يا إلهي! كم في هذا ضياع لأنشطتك.

– وماذا عنك أنت يا "**كستلاتة**" ؟

– سنّي لا تسمح لي بخدمة وطني في هذا المجال.

– لا حالات جاسوسية في الأجواء في هذه الأيام؟

– أتوقع وجود الكثير منها لكن من الوارد أنهم يجندون الأذكياء لهذه المهام من بين المتخرجين من الجامعات، ومن هم في مسيس حاجة إلى الحصول على وظائف. أين تقيم حاليًّا؟ بعثت إليك ببطاقة معايدة بمناسبة عيد الميلاد هذا العام. ولكنني لم أرسلها بالبريد حتى شهر كانون الثاني (يناير)، ولكنها على أية حال أعيدت إليّ مدونًا عليها عبارة "غير معروف بهذا العنوان" .

– نعم. انتقلنا من هذا العنوان لنعيش في الريف حاليًّا. بالقرب من البحر.

في منطقة "**هولوكوي**" .

– "**هولوكوي**" . "**هولوكوي**"؟ يبدو أنني أتذكر شيئًا ما، شيئًا ما من نوعية عملك حدث هناك ذات مرة. ألم يكن هذا هناك؟ فأجاب "**تومي**" :

– ليس في أيامي. ولم أسمع عنه شيئا حتى انتقلت لأعيش هناك. أساطير من الماضي. منذ ستين عاما على الأقل.

– شيء ذو علاقة بغواصة ما .. ألم يكن كذلك؟ خطط تتعلق بغواصة بيعت إلى طرف ما أو آخر. لقد نسيت لمن كنا نبيع في تلك المرة. ربما لليابانيين وربما الروس .. وكثيرين غيرهم. بدا أن الناس كانوا يلتقون بوكلاء الأعداء في متنزه "**ريجينت**" أو مكان مماثل آخر دائما. كانوا يلتقون شخصية مثل سكرتير ثالث بالسفارة. لم يصبح هناك العديد من الجاسوسات الفاتنات كما كان الحال ذات مرة في الروايات الخيالية.

– أريد أن أطرح عليك بعض الأسئلة يا "**كستلاتة**" .

– اسأل. عشت حياة خالية من الأحداث تقريبًا. "**مارجيري**" .. هل تتذكر "**مارجيري**"؟

– نعم. أتذكرها بالتأكيد. كدت أحضر مراسم عقد قرانكما.

– أعلم. لكن لم يمكنك الوصول أو شيء من هذا القبيل، أو ركبت قطاراً مختلفًا على حد ذاكرتي.. قطاراً متجهًا إلى "**اسكتلندا**" بدلاً من "**ساوثهول**" . على أية حال لم يمكنك الحضور ولم يترتب على ذلك الكثير.

– ألم يعقد قرانك؟

– بلى. تزوجنا. ولكننا لم نوفق فيه لسبب أو لآخر. وانتهى الأمر بنا إلى الانفصال بعد حوالي عام ونصف العام. تزوجت هي ثانية ولم أتزوج أنا ولكنني أعيش حياتي بطريقة مناسبة. أقيم في "**ليتل بوللون**" . هناك ملاعب ظريفة للجولف وتعيش معي شقيقتي. هي أرملة ميسورة الحال ونعيش معًا في وئام. وهي ضعيفة السمع فلا تسمع ما أقول ولكن هذا لا يكلفني أكثر من أن أرفع صوتي قليلاً.

– قلت إنك سمعت عن "**هولوكوي**" . هل كان الأمر يتعلق بأعمال جاسوسية من أي نوع فعلاً؟

– في الحقيقة يا صديقي حدث هذا منذ زمن بعيد جدًا بحيث لا يمكنني أن أتذكر الكثير عنه. لقد أحدث ضجَّة كبيرة في ذلك الوقت. ضابط بحري شاب رائع فوق مستوى الشبهات من كافة النواحي، بريطاني بنسبة تسعين بالمائة قدرت جدارته بالاعتماد عليه بنحو مائة وخمسة بالمائة ولكن شيئًا من هذا لم يكن صحيحًا؛ فقد عمل لحساب .. لا أتذكر الآن لحساب من كان يعمل.. أعتقد أنه لحساب "**ألمانيا**" . قبل حرب عام ألف وتسعمائة وأربعة عشر. نعم أعتقد أن هذا ما كان. فقال "**تومي**" :

– وكانت هناك امرأة أيضًا ذات صلة بالموضوع – على حد اعتقادي.

– أتذكر شيئًا عن فتاة تدعى "**ماري جوردان**" . لعلمك الخاص ذاكرتي ليست جيدة تمامًا بشأن هذا الموضوع. نُشرت الأخبار في الصحف. أعتقد أنها كانت زوجة لهذا الضابط البحري الذي فوق مستوى الشبهات. وكانت الزوجة التي اتصلت بالروس .. و.. لا. لا .. هذا شيء حدث بعد ذلك. تختلط الأحداث بذهني .. تبدو جميعها متشابهة. ظنت الزوجة أنه لا يحصل على المال الكافي وهو ما يعني أنها لم تكن هي تحصل على المال الكافي؛ ولذلك .. لماذا تريد أنت أن تبحث في كل هذا التاريخ القديم؟ ما صلتك به بعد انقضاء كل هذا الزمن؟ أعلم أنه قد كان لك صلة ما ذات مرة بشخصية كانت على الـ "**لوزيتانيا**" أو ذهبت مع الـ "**لوزيتانيا**" أو شيء من هذا القبيل. أليس هذا صحيحًا؟ إذا عدنا بالذاكرة إلى تلك الأحداث فتلك التي كنت أنت أو زوجتك تبحث فيها. فقال "**تومي**" :

– كلانا كان مشاركًا في هذا العمل وكان ذلك منذ زمن بعيد جدًا بحيث لا أستطيع أن أتذكر عنه شيئًا.

– كانت هناك امرأة متصلة بهذا الموضوع .. أليس كذلك؟ اسمها شيء مثل "**جين فيش**" أو شيء كهذا. أو ربما كان "**جين هويل**" فقال "**تومي**" :

– "**جين فين**".

– أين هي الآن؟

– متزوجة بأمريكي.

– آه. حسناً. كل شيء على خير ما يرام. يبدو أن المرء منا يحب أن يتحدث عن الأصدقاء القدامى ويقف على أخبارهم. عندما يأتي ذكر الأصدقاء القدامى إما أن تعرف أنهم قد توفوا وهذا ما يدهشك كثيراً؛ لأنك لم تظن أنهم قد توفوا وإما أن تعرف أنهم لم يموتوا وهذا ما يدهشك بقدر أكبر، إنه عالم صعب جداً.

وافقه "**تومي**" على هذا الرأي وهنا أقبل النادل نحوهما. وبدأ التفكير فيما سوف يتناولانه. أما ما تلا ذلك من حديث فكان حول المتطلبات الغذائية. تم الترتيب لموعد آخر لـ"**تومي**" بعد ظهر ذلك اليوم. وكان في هذه المرة مع رجل أشيب الشعر حزين جالساً في حجرة مكتب، وكان واضحاً عليه أنه ضنين بالوقت الذي كان يسمح به لـ"**تومي**":

– حسنا. لا يمكنني أن أقطع بذلك. من المؤكد أنني على علم تقريبي بما تتحدث عنه.. كثر الحديث حوله في تلك الآونة .. وأحدث ضجة سياسية عارمة .. لكن في الحقيقة ليست لديّ أية معلومات عن شيء كهذا. لا. كما تعلم – مثل هذه الأمور لا تدوم طويلاً. سرعان ما تتوارى عن الأذهان بمجرد اهتداء الصحافة إلى فضيحة مثيرة أخرى.

تحدث باقتضاب عن عدد من اللحظات المثيرة في حياته التي تم الكشف فيها فجأة عن شيء ما لم يخطر بباله قط أو التي ثارت شكوكه فيها فجأة على أثر حادث غريب. قال:

– حسناً. لديّ شيء واحد من الممكن أن يفيدك. إليك هذا العنوان وقد حددت لك موعداً أيضاً مع الرجل المعني، رجل ظريف. على علم بكل الأمور. إنه قمة. قمة بكل المقاييس. كانت إحدى بناتي ابنة له بالمعمودية؛ لهذا السبب هو ظريف معي إلى أبعد الحدود، وعلى استعداد دائم لمساعدتي

كلما أمكنه ذلك. طلبت منه تحديد موعد لاستقبالك أخبرته بأن هناك أموراً تريد أن تعرف عنها أهم المعلومات. زكّيتك عنده وأثنيت عليك كثيراً؛ فقال لي إنه قد سمع عنك بالفعل، ورحب بذهابك إليه في الرابعة إلا ربعًا – على ما أعتقد. هذا هو العنوان. وهو مكتب بوسط المدينة – على ما أظن. هل سبق لك لقاؤه؟ فأجاب "**تومي**":

– لا أظن ذلك. وبعدما نظر إلى البطاقة والعنوان قال مؤكداً:

– لا.

– لن يوحي مظهره إليك بأنه يعرف شيئًا. فهو كبير الحجم أصفر اللون. فقال "**تومي**":

– أووه، كبير وأصفر.

– لم تأت هذه العبارة إليه بالكثير من المعلومات. قال صديق "**تومي**" الشائب الرأس:

– إنه قمة. قمة بحق. اذهب إليه. يستطيع أن يخبرك بشيء ما في جميع الأحوال. حظًّا سعيداً يا صديقي.

نجح "**تومي**" في الاهتداء إلى ذلك المكتب بوسط المدينة حيث استقبله رجل فيما بين الخامسة والثلاثين والأربعين من العمر، رمقه بنظرة المُصِرّ على أن يفعل الأسوأ بلا تردُّد. شعر "**تومي**" بأنه موضع اتهام بأمور كثيرة، من بينها أن يكون حاملاً قنبلة في شيء ما مموّه أو مهيأ لاختطاف أي إنسان أو لترفيع طاقم المستخدمين بمسدس ما. أصاب هذا الإحساس "**تومي**" بالتوتر العصبي الشديد.

– لديك موعد مع السيد "**روبنسون**"؟ متى .. قلت؟ آه. الرابعة إلا ربعًا.

رجع الرجل إلى سجل فوق مكتبه ثم عاد ليسأل:

– السيد "**تومي بيريسفورد**" .. أليس كذلك؟ فأجاب "**تومي**":

– نعم.

– وقع باسمك هنا .. من فضلك. ووقع "**تومي**" باسمه بالموضع الذي

طلب منه أن يوقع فيه. نادى الرجل:

- "**جونسون**". بدا شاب بادي العصبية في حوالي الثالثة والعشرين من العمر وكأنه شبح خرج من خلف مكتب واقع خلف قاطوع زجاجي:

- نعم يا سيدي.

- اصطحب السيد "**بيريسفورد**" إلى مكتب السيد "**روبنسون**" بالطابق الرابع.

- سمعًا وطاعة يا سيدي.

واصطحب الشاب "**تومي**" إلى مصعد من النوعية التي يبدو دائمًا أن لديها فكرتها الخاصة عن كيفية التعامل مع من يركبونها. فتح بابًا المصعد فدخل "**تومي**" وكادا أن يرتطما به وهو يدخل وأغلقا على قيد سنتيمتر واحد من عموده الفقاري. قال "**جونسون**" مبديًا ودًا تجاه شخصية واضح أنه قد سمح لها بالاقتراب من الشخص ذي المكانة العليا في الطابق الأعلى:

- طقس بارد. قال "**تومي**":

- نعم. يبدو أن الطقس يكون باردًا دائمًا ابتداء من بعد الظهر. فقال "**جونسون**":

- يقول البعض إن ذلك بسبب التلوث وآخرون إنه بسبب الغاز الطبيعي الذي يستخرجونه من بحر الشمال. فقال "**تومي**":

- أووه. لم أسمع بذلك. وقال "**جونسون**":

- لا يبدو لي أن ذلك محتمل.

مرّا بالطابق الثاني ثم الثالث ثم وصلا إلى الطابق الرابع. تقدم "**جونسون**" "**تومي**" مرة أخرى، متجاوزًا البابين عند غلقهما بمقدار سنتيمتر واحد، عبر ممر إلى باب. قرع على الباب وسُمح له بالدخول فاحتفظ بالباب مفتوحًا حيث طلب من "**تومي**" تخطي عتبة الباب وهو يقول:

- السيد "**بيريسفورد**" يا سيدي. بناءً على موعد سابق.

ثم غادر الحجرة وأغلق الباب خلفه. تقدم "**تومي**" نحو الأمام. بدت

الحجرة ممتلئة بصفة خاصة بالمكتب العملاق، ومن خلف المكتب جلس رجل ضخم البنية كبير الوزن فارع الطول، ذو وجه كبير أصفر .. طبقا لما كان "**تومي**" مستعداً لأن يرى بناء على وصف صديقه لهذا الرجل. لم يعرف "**تومي**" إلى أية جنسية ينتمي هذا الرجل. فمن الممكن أن يكون من أية جنسية. أحس "**تومي**" بأنه ربما كان أجنبيًا. ألماني ربما؟ أم نمساوي وربما ياباني أو ربما يكون إنجليزيًا صافيًا.

– آه يا سيد "**بيريسفورد**". ونهض السيد "**روبنسون**" مصافحًا، قال "**تومي**":

– إنني آسف، إنني أتيت لأخذ الكثير من وقتك.

راوده إحساس بأنه قد رأى السيد "**روبنسون**" من قبل أو أن إنسانا ما قد أشار إليه له. إلا أنه في تلك المناسبة – أيًا كانت – شعر بشيء من الخجل؛ لأنه كان واضحًا أن السيد "**روبنسون**" كان ذا شخصية بالغة الأهمية، واستنتج الآن، أو بالحري شعر فوراً بأن الرجل لم يزل على ذلك القدر الكبير من الأهمية.

– فهمت أن هناك شيئًا ما تريد أن تتحرى عنه. لقد أخبرني صديقك .. ما اسمه.. بذلك بإيجاز.

– لا أفترض .. أعني أنه شيء ربما لا ينبغي أن أزعجك بشأنه. لا أعتقد أن له أهمية تُذكر. إنه مجرد.. مجرد ..

– مجرد فكرة؟

– فكرة زوجتي – إلى حد ما.

– لقد سمعت عن زوجتك. وسمعت عنك أيضًا. آخر العمليات كانت M أو N أليس كذلك؟ أو N أو M أتذكر جيداً. أتذكر جميع الوقائع والأمور. أمكنك القبض على ذلك الشاب الضابط الذي كان مفترضًا أنه فرد في البحرية الإنجليزية ولكنه كان في الواقع هونيًا (جنديًا ألمانيًا) مهمًا جداً. ما زلت أشير إليهم بأنهم هونيون بين الحين والحين. أعلم بالتأكيد أننا جميعًا

مختلفون الآن وقد أصبحنا في السوق المشتركة. جميعنا في مدرسة رياض الأطفال كما يمكن القول. أعلم أنك قمت بعمل جليل في ذلك الموضوع. عمل جليل جداً. وكذلك زوجتك. صحيح. كل كتب الأطفال تلك. أتذكرها جيداً، والعرض الذي فضح الأمر، والأناشيد التي به. فقال "**تومي**" بشديد الاحترام:

– ظريف أن تتذكر ذلك.

– نعم. أعلم. دائماً ما يدهش المرء عندما يتذكر شيئًا ما. تذكرته في تلك اللحظة.

– نعم. كان عرضاً جيداً.

– والآن، ما الأمر؟ ما الذي تريد أن تعرفه؟ فقال "**تومي**":

– لا شيء في الواقع .. إنه مجرد ...

– هيا. عبِّر عما لديك. لست محتاجًا إلى تقديم الأعذار، أخبرني بما لديك. تفضَّل بالجلوس وأرح قدميك من الثقل. ألا تعلم – أو سوف تعلم عندما تصبح أكبر سنًا – أن إراحة القدمين مهمة؟ فقال "**تومي**":

– أنا كبير السن بما يكفي بالفعل. من غير الممكن أن يكون هناك الكثير في انتظاري الآن سوى نعش في الوقت المناسب.

– آه. ما كنت لأقول ذلك؛ لأنك ما إن تتجاوز عمرًا معينًا حتى يمكنك مواصلة الحياة إلى الأبد تقريبًا. والآن ما الأمر؟ فقال "**تومي**":

– باختصار شديد انتقلت أنا وزوجتي إلى منزل جديد وتحملنا كل متاعب الانتقال إلى منزل جديد.. فقال "**روبنسون**":

– أعلم. نعم. لي علم بهذه الأمور. عمال الكهرباء ينتشرون في كل مكان، يحفرون الحفر وتسقطون فيها و ..

– كان بالمنزل عدد من الكتب أراد المستأجرون السابقون بيعها. كانت هذه الكتب ملكًا للعائلة ولم يهتموا بالاحتفاظ بها. عدد كبير من كتب الأطفال من جميع النوعيات، مثل "**هينتي**" وما إلى ذلك.

– أتذكر "**هينتي**" منذ أيام صباي.

– وفي أحد الكتب الذي كانت زوجتي تقرؤها. لحظت وجود نص تحته خط.. عبارة عن حروف تحتها خط إذا جُمعت معًا تكون جملة معينة. يبدو هذا سخيفًا جدًّا.. ما سوف أقوله الآن.. فقال "**روبنسون**":

– في ذلك أمل كبير. عندما يبدو الشيء سخيفًا أريد أن أسمعه.

– وهذه الجملة: ""**ماري جوردان**" لم تكن وفاتها طبيعية. إنه واحد منا".

فقال السيد "**روبنسون**":

– أمر مثير للاهتمام جدًّا. لم أصادف شيئًا كهذا من قبل. هذا هو نص الجملة، أليس كذلك؟ ""**ماري جوردان**" لم تكن وفاتها طبيعية". ومن كان ذلك الذي كتبها؟ هل هناك أية إفادة عن ذلك؟

– يبدو أنه صبي في سن المدرسة. اسم عائلته "**باركنسون**". عاشوا جميعًا في هذا البيت وكان هو أحد أفراد الأسرة كما استنتجنا. "**ألكسندر باركنسون**". على أية حال مقبرته في فناء الكنيسة. فقال السيد "**روبنسون**":

– "**باركنسون**". انتظر قليلاً. دعني أفكر. "**باركنسون**".. نعم. كان هناك اسم كهذا ارتبط ببعض الأمور لكن لا يمكنني دائمًا أن أتذكر من أو ماذا أو أين.

– وأردنا أن نعرف من كانت "**ماري جوردان**".

– لأنها لم تمت موتًا طبيعيًا. نعم. أفترض أن هذا مجال تخصصك، ولكن الأمر يبدو غريبًا جدًّا. وماذا وجدت بشأنها؟ فأجاب "**تومي**":

– لا شيء ألبتة. يبدو أن لا أحدًا يتذكرها هناك جيدًا أو يقول عنها شيئًا. هناك من قالت عنها إنها كانت وصيفة أو مربية أو شيئًا من هذا القبيل، لم يستطيعوا أن يتذكروا. لقبوها بالآنسة بالفرنسية أو الألمانية. أمر بالغ الصعوبة كما ترى.

– وتوفيت، وماذا كان سبب وفاتها؟

– قطف أحدهم بعض أوراق قفاز الثعلب مع بعض السبانخ من الحديقة بطريق الخطإ وأكلوها. لعلمك الخاص ربما لم يكن هذا قاتلاً. فقال السيد "**روبنسون**" :

– لا. ليس هذا القدر منه كافيًا لأن يقتل. لكن إذا وضعت جرعة قوية من مركَّب "**الديجيتالين**" شبه القلوي بالقهوة وتأكدت أن "**ماري جوردان**" قد تناولتها في قهوتها أو في مشروب في وقت سابق – عندئذ يُعزَّى سبب الوفاة إلى قفاز الثعلب – كقولك – وتعتبر الوفاة كأنها حادث عارض. إلا أن "**ألكسندر باركر**" أو أيًّا كان اسم هذا الصبي كان ذكيًّا جدًّا بحيث لم يصدق ذلك. وكان له رأي آخر – أليس كذلك؟ أي شيء آخر يا سيد "**بيريسفورد**"؟ متى حدث ذلك؟ إبان الحرب العالمية الأولى أو الحرب العالمية الثانية أم قبل ذلك؟

– قبل ذلك. تفيد الشائعات المتنقلة من الأسلاف العجائز بأنها كانت جاسوسة ألمانية.

– أتذكر تلك القضية. أحدثت ضجة كبيرة في البلاد. كان دائما يقال عن أي ألماني يعمل في "**إنجلترا**" – قبل عام ألف وتسعمائة وأربعة عشر – إنه جاسوس. والضابط الإنجليزي المتورط في الموضوع كان يقال عنه دائمًا إنه "فوق مستوى الشبهات"، ودائمًا ما أنظر بعين الشك إلى كل من هو "فوق مستوى الشبهات". حدث كل هذا منذ زمن بعيد ولا أعتقد أن شيئًا ما قد كتب عنه في السنوات الأخيرة، ليس بالأسلوب الذي يتم به تناول ما يفرج عنه من معلومات من السجلات السرية من أجل التداول بين عامة الشعب على الأقل.

– هذا صحيح ولكن الموضوع كله غامض.

– نعم. لابد أن يصبح غامضا بمرور كل ذلك الوقت. كان مرتبطًا بأسرار الغواصة التي سرقت في حوالي ذلك التوقيت. وكانت هناك أخبار عن أحداث تتعلق بسلاح الطيران أيضًا. جزء كبير من هذا الجانب من الموضوع

وهذا ما لفت النظر إليه كما يمكن القول. ولكن هناك الكثير من الأمور الأخرى أيضًا. هناك الجانب السياسي من الموضوع أيضًا. عدد كبير من ساستنا البارزين. من النوعية التي يقول الناس عنها إنها "تتمتع بكمال حقيقي" و"الكمال الحقيقي" في مثل خطورة "فوق مستوى الشبهات" في الأسلحة الخدمية الوطنية. أتذكر هذا في هذه الحرب الأخيرة. لم يكن لبعض الناس الكمال الذي افترض فيهم. عاش أحدهم في مكان قريب من هنا، في كوخ على الشاطئ على ما أظن. جمع حوله عدداً كبيراً من التلاميذ الممجدين "**هتلر**". قالوا إن فرصتنا الوحيدة تكمن في الانضمام إليهم. بدا ذلك الرجل نبيل الخلق جداً، وكانت له أفكار رائعة. انصب اهتمامه على محو الفقر والصعاب والظلم... وأمور كهذه. نعم. بوّق في نفير الفاشية دون أن يصفها بالفاشية. و"**إسبانيا**" أيضًا كانت مع الفرنسيين وكل تلك الزمرة ابتداء. و"**موسوليني**" يطلق أحاديثه بشكل طبيعي. نعم هناك دائمًا وجود للأنشطة التي يقوم بها الناس إلى جانب مهامهم النظامية، والتي لم يكشف عنها قط ولم يعلم أحد عنها أي شيء. فقال "**تومي**":

– يبدو أنك على علم بكل شيء. معذرة. ربما يكون هذا سوء أدب مني، لكن من المثير أن ألتقي شخصية تبدو عالمة ببواطن جميع الأمور.

– حسنًا. كثيراً ما كنت ضالعًا في أمور كثيرة. أصطدم بأشياء ذات علاقة بالأنشطة الجانبية أو بالخلفيات، أسمع الكثير وأسمع الكثير من أصدقاء قدامى أيضًا كانوا متورطين فيها حتى العنق وعلموا الكثير. أتوقع أنك قد بدأت تتبين هذا، أليس كذلك؟ فقال "**تومي**":

– نعم. هذا صحيح تمامًا. ألتقي أصدقاء قدامى كانت لهم صلات بأصدقاء قدامى آخرين والنتيجة أن يكون هناك قدر كبير من الأمور التي يعرفها الأصدقاء وتعرفها أنت. لم تجتمعوا معًا آنذاك تحديداً ولكنك الآن تسمع عنها وتجد أنها مسلية أو مثيرة للاهتمام في بعض الأحيان. فقال السيد "**روبنسون**":

– نعم. يمكنني أن أرى إلى أين تتجه .. أو بالحري إلى أين تميل. من المثير للاهتمام أن تلتقي بهذا. فقال "**تومي**" :

– المشكلة هي أنني لا أعلم يقينًا .. أعني .. أعني .. أننا ربما نكون أكثر ميلاً إلى الحماقة. أعني أننا اشترينا هذا المنزل لنقيم به، وليكون منزلاً من النوعية التي كنا نريدها. قمنا بإجراء الإصلاحات والتعديلات اللازمة طبقًا لذوقنا الخاص ونحاول الآن تصميم شكل الحديقة، ولكنني لا أريد الارتباط بهذه النوعية من المهام مرة أخرى. لا يتعدى الأمر كونه فضولاً بحتًا من جانبنا. شيء ما حدث منذ زمن طويل ولا يسعك سوى التفكير فيه أو الرغبة في معرفة أسبابه. لكن لا جدوى منه. فلن يفيد أي أحد.

– أعلم. تريدان أن تعرفا فقط. حسنا. هذه هي طبيعة البشر، وهذا ما يدفعنا إلى الكشف عن الأشياء، إلى الطيران والهبوط على سطح القمر والاهتمام بالاكتشافات التحمائية (تحت الماء) واكتشاف الغاز الطبيعي في بحر الشمال واكتشاف الأكسيجين الذي يمدنا البحر به وليس الأشجار والغابات. يتم الكشف عن أشياء كثيرة طوال الوقت. من خلال الفضول وحده. أعتقد أن الإنسان بلا فضول يصبح سلحفاة تعيش حياة مريحة تمامًا: تبيت طوال الشتاء ولا تقتات بشيء غير الحشائش– على حد علمي – وتستأنف الحياة طوال الصيف. ليست هذه حياة مثيرة تمامًا وإن كانت مكفولة الأمان تمامًا، ومن ناحية أخرى....... قاطعه "**تومي**" قائلا:

– من ناحية أخرى يمكن القول إن الإنسان أقرب شبهًا بالنمس.

– أحسنت. أنت قارئ جيد لأعمال "**كبلنج**" وهذا يسعدني. لا ينال "**كبلنج**" التقدير الواجب في هذه الأيام. كان كاتبًا رائعًا. ولم تزل أعماله مناسبة جدًّا للقراءة حاليًّا. قصصه القصيرة مذهلة. ولا أعتقد أن روعتها قد اكتشفت بالقدر الكافي. قال "**تومي**" :

– لا أريد أن أتصرف كأحمق. لا أريد التورط في أمور كثيرة لا علاقة لي بها. ولا علاقة لها بأي أحد حاليًّا طبقًا لتقديري. فقال السيد "**روبنسون**" :

- لا يمكنك أن تجزم بذلك أبداً. فقال "**تومي**" الذي احتوته الآن سحابة من الإحساس بالذنب؛ لأنه أزعج رجلاً على مثل هذا القدر من الأهمية:

- ما أعنيه هو أنني لا أحاول فقط الكشف عن الأمور.

- ولكنك مضطر إلى أن تحاول الكشف عن الأمور رغبة في إرضاء زوجتك طبقا لما أراه. نعم. لقد سمعت عنها ولكن لم يكن لي شرف الالتقاء بها قط. شخصية رائعة هي أليست كذلك؟ فقال "**تومي**":

- هذا ما أعتقده.

- يسرني أن أسمع هذا. أحب الزوجين المرتبط كل منهما بالآخر واللذين يستمتعان بعلاقتهما الزوجية ويواصلان استمتاعهما بها.

- في الواقع إنني أشبه السلحفاة .. على حد تقديري. أعني أننا الآن مسنان ونلنا قسطنا العادل من المتاعب. وعلى الرغم من أننا نتمتع بصحة جيدة جداً بالنسبة إلى عمرنا الحالي إلا أننا لا نريد التورط في أي شيء الآن. لا نحاول التدخل في أي شيء. كل ما نرغب فيه هو .. فقاطعه "**روبنسون**" قائلا:

- أعلم. أعلم. أرجو أن تكف عن مواصلة الاعتذار عن ذلك. تريد أن تعرف، تريد أن تعرف مثل النمس. والسيدة "**بيريسفورد**" تريد أن تعرف. وفضلاً على ذلك يمكنني القول إنها لابد أن تتوصل إلى أن تعرف بطريقة ما.

- تظن أنها أكثر احتمالاً للتوصل إلى ذلك مني؟

- ربما إنني لا أعتقد أن لديك ذات القدر من التصميم على كشف الغموض الذي لديها، وإن كنت أتصور أنه من المحتمل أن تتوصل أنت إلى هذا الكشف بسبب مهارتك في الاهتداء إلى المصادر؛ فليس من السهل الاهتداء إلى مصادر تتعلق بموضوع قديم إلى هذا الحد.

- لهذا السبب يراودني إحساس شديد بالذنب؛ لأنني أتيت إليك وأزعجتك. وما كان لي أن أفعل هذا من ذاتي، ولكن "**كستلاتة**" .. أعني...

– أعرف من تعني ذا الشارب الكستلاتي – الذي كان معجبًا به في وقت من الأوقات؛ ولهذا عرف بهذا الاسم. رجل طيب. أنجز أعمالاً مهمة في زمانه. نعم. لقد بعث بك إليّ؛ لأنه يعلم قدر اهتمامي بأي شيءٍ من هذا القبيل. فقد بدأت في وقت مبكر جدًّا. أبحث وأكتشف أمورًا. فقال "**تومي**":

– والآن.. الآن أصبحت حجّة وقمّة. فقال "**روبنسون**":

– من الذي أخبرك بهذا؟ كل هذا هراء. فقال "**تومي**":

– لا أعتقد ذلك. قال "**روبنسون**":

– حسنا. البعض يبلغ القمة والبعض تُفرض عليه القمة، ويمكنني القول إن الحالة الأخيرة تنطبق عليَّ بدرجة أو بأخرى. فقد فُرضت عليّ بعض الأمور الشديدة الإثارة للاهتمام.

– ذلك الموضوع ذو الصلة بـ"**فرانكفورت**"، أليس هذا أحدها؟

– آه.. لقد سمعت تلك الشائعات، أليس كذلك؟ لا تفكر فيها بعد الآن. من غير المفترض أن يُعرف عنها الكثير. لا تظن أنني سوف أصدك؛ لأنك أتيت إليَّ طارحًا بعض الأسئلة. ربما باستطاعتي الإجابة عن بعض الأمور التي تريد معرفتها. إذا قلت إن شيئًا ما قد حدث منذ زمن بعيد فقد يترتب على ذلك معرفة شيء من الممكن أن يكون ذا أهمية حاليًّا ويتيح معلومة عن أمور ربما تجري في هذه الأيام وربما تكون حقيقية بما يكفي. لا يمكنني أن أستبعد ذلك على أي إنسان أو على أي شيء. ومع ذلك، لا أعلم بماذا أنصحك. إنه موضوع قلق وإصغاء إلى آخرين وكشف ما يمكن عن سنوات منقضية. إذا صادفك شيء تعتقد أنه ربما يكون ذا أهمية لي فاتصل بي هاتفيًّا أو بأية طريقة أخرى. يمكننا استخدام كلمات مشفرة فيما بيننا؛ لمجرد إشعارنا بالإثارة ثانية، إشعارنا وكأن لنا أهمية معينة. ما رأيك في "هلام التفاح البري"؟ تقول لي إن زوجتك صنعت بضعة برطمانات من "هلام التفاح البري" وتسألني ما إذا كنت أرغب في واحد منها وسوف أفهم ما تعنيه.

– تعني عندما أتوصل إلى شيء بشأن "**ماري جوردان**"، لا أرى جدوى من مواصلة البحث في هذا الموضوع؛ فقد توفيت على أقل تقدير.

– نعم. لقد توفيت. لكن – في بعض الأحيان – يخطئ المرء الظن بالناس بسبب ما قيل له عنهم، أو بسبب شيء كتب عنهم.

– تعني أن لدينا أفكاراً خاطئة عن "**ماري جوردان**"؟ هل تعني أنه لم تكن لها أهمية تُذكر؟ فقال "**روبنسون**":

– أبداً. ربما كانت مهمة جداً. ثم نظر "**روبنسون**" إلى ساعة معصمه قائلا:

– أنا مضطر إلى إنهاء لقائي معك الآن. هناك شخص سوف يصل في غضون عشر دقائق. شخصية مملة إلى أبعد الحدود لكن لها مكانتها في الدوائر الحكومية، وأنت تعلم كيف تجري الحياة في هذه الأيام. الحكومة.. الحكومة.. عليك أن تحتملها أينما كنت. في المكتب وفي البيت وفي المتاجر وعلى شاشة التلفاز. الخصوصية هي ما نحن أكثر حاجة إليه في هذه الأيام، أما هذه اللعبة الترفيهية التي تمارسها أنت وزوجتك فهي من خصوصياتكما ويمكنكما النظر إليها من خلفية حياتكما الخاصة. ومن يدري.. فقد تكتشفان شيئًا ما .. قد يكون ذا أهمية معينة. قد توفَّقان في ذلك وقد لا توفَّقان. لا يمكنني أن أخبرك بمزيد عن هذا الموضوع. أعلم ببعض الوقائع التي ربما لا يستطيع أحد غيري إطلاعك عليها، وقد أتمكن من إخبارك بها في التوقيت المناسب. لكن نظراً إلى أن جميع الأطراف المعنية متوفاة ومنتهٍ أمرها فليس هذا بالأسلوب العملي، ومع ذلك سوف أقول لك شيئًا واحداً قد يساعدك في أبحاثك وتحرياتك. اقرأ عن هذه القضية، قضية محاكمة القائد.. أيًا كان اسمه .. فقد نسيت اسمه الآن.. وقد تمت محاكمته بتهمة التجسس، وقضي عليه بالإعدام وكان جديراً جداً بتنفيذ الحكم فيه. كان خائنًا لوطنه وهذا أمر مؤكد. أما "**ماري جوردان**" ..

– نعم؟

– تريد أن تعرف شيئًا عن "**ماري جوردان**" . حسنا .. سوف أخبرك بشيء واحد قد يساعدك في تكوين وجهة نظر. كانت "**ماري جوردان**" ما يمكن أن يعرف بالجاسوسة ولكنها لم تكن جاسوسة ألمانية. لم تكن جاسوسة لحساب الأعداء. أصغ إلى هذا يا بني. لا يسعني سوى أن أدعوك بيا بني.

خفَّض السيد "**روبنسون**" صوته وانحنى نحو الأمام من فوق مكتبه قائلا:

– كانت واحدة من مجموعتنا.

*****

الجزء الثالث

- 15 -

"ماري جوردان"

قالت "**توبنس**" :

– لكن هذا يغير كل شيء. قال "**تومي**" :

– نعم. لقد كان هذا بمثابة صدمة.

– ولماذا أخبرك به؟ فقال "**تومي**" :

– لا أعلم. ولكنني فكرت في احتمالين أو ثلاثة احتمالات مختلفة.

– كيف يبدو هذا الرجل يا "**تومي**"؟ لم تخبرني. فقال "**تومي**" :

– إنه أصفر اللون. أصفر اللون وكبير الحجم وبدين وعادي جدًا، ولكنه في الوقت ذاته ليس عاديًا ألبتة. هو – كما وصفه صديقي – أحد القمم.

– تبدو كمن يتحدث عن المغنيين الشعبيين.

– اعتدت استخدام هذه المصطلحات.

– نعم. لكن لماذا؟ من المؤكد أن هذا يوحي بالكشف عن شيء لم يكن يرغب في الكشف عنه. فقال "**تومي**" :

– كان هذا منذ زمن بعيد، وقد انتهى كل شيء. لا أعتقد أن لأي جانب منه أهمية حاليًا. أعني.. انظري إلى كل هذه المعلومات التي يفرجون عنها الآن من واقع السجلات. لا يفرضون السرية على الأمور كما كانوا يفعلون. يتركون كل شيء يخرج إلى الناس، أعني ما قد حدث بالفعل. ما كتبه فرد وما قاله آخر وما كان أحد النزاعات بسببه وكيف تم فرض السرية على شيء آخر بسبب شيء ما لم تسمع عنه قط.. قالت "**توبنس**" :

– إنك تشعرني بشديد الاضطراب والتشوش عندما تقول أشياء كهذه. وهذا يجعل كل شيء يبدو خطأ أيضًا. أليس كذلك؟

– ماذا تعنين بأنه يجعل كل شيء يبدو خطأ؟

– أعني كيفية نظرنا إلى هذا الموضوع. أعني .. ما الذي أعنيه؟ فقال "**تومي**" :

– واصلي الحديث. لابد أنك تعلمين ما تعنين.

– حسنًا. ما قلته. كل شيءٍ خطأ. أعني أننا قد عثرنا على هذا الشيء في "**السهم الأسود**" وكان واضحًا تمام الوضوح. شخص ما كتبه هناك. ربما هذا الصبي "**ألكسندر**" وكان يعني أن شخصًا ما .. أحدهم – كما قال – "واحد منا"، ولكنه كان يعني أن أحد أفراد العائلة أو فردًا بالمنزل أو شيئًا من هذا القبيل قد رتب لموت "**ماري جوردان**" ولم تعرف من كانت "**ماري جوردان**" مما جعل الأمر محيرًا جدًا. فقال "**تومي**" :

– يعلم الله كم هو محير.

– لم يسبب لك حيرة تفوق حيرتي أنا؛ فقد أزعجني كثيرًا أنني لم أهتد إلى أي شيء بشأنها. على الأقل..

– ما عرفته عنها هو أنها قد بدت وكأنها جاسوسة ألمانية .. هل هذا ما تعنينه؟ أنك قد اكتشفت ذلك؟

– نعم. هذا ما اعتقده الناس عنها وافترضتُ أنا أنه صحيح. والآن فقط .. فقال "**تومي**" :

– الآن فقط أصبحنا نعرف أنه غير صحيح، وأنها كانت النقيض من جاسوسة ألمانية.

– كانت نوعًا ما جاسوسة إنجليزية.

– لابد أنها كانت إذًا في عمل جاسوسي أو أمني إنجليزي أو أيًّا كان اسمه، وأنها قد جاءت إلى هنا بصفة معينة لتكشف عن شيء ما. حتى تكتشف شيئًا ما عن .. عن.. ما اسمه؟ ليتني أتذكر الأسماء بقدر أفضل. أعني ضابط البحرية أو ضابط الجيش أو أيًّا ما كانه. الرجل الذي باع أسرار الغواصة أو ارتكب عملاً من هذا القبيل. نعم. أفترض أنه كانت هناك مجموعة

صغيرة من العملاء الألمان في هذا المكان كما كان الحال في قضية الـ N أو الـM، مشغولة بالترتيب لبعض الأمور. مثل تلك الأمور التي اكتشفنا الترتيب لها.

– نعم. يبدو الأمر كذلك.

– وأنه قد بُعث بها إلى هذا المكان – في هذه الحالة – للكشف عما كان يجري.

– فهمت.

– بناء على ذلك لا تعني عبارة "واحد منا" ما كنا نظن أنها تعنيه. كان المعني بعبارة "واحد منا" شخصًا ما كان بهذه المنطقة. أي شخص ما له علاقة بهذا المنزل، أو كان بهذا المنزل بسبب مناسبة معينة؛ وبذلك عندما توفيت لم تكن وفاتها طبيعية؛ لأن شخصًا ما انتبه لما كانت تفعله. واكتشف "**ألكسندر**" هذا الأمر. قالت "**توبنس**":

– ربما كانت تتظاهر بالتجسس لحساب "**ألمانيا**". تخطب ود ذلك الضابط.. أيًّا من كان. فقال "**تومي**":

– أشيري إليه برمز الضابط "س" إذا لم يمكنك أن تتذكري اسمه.

– حسنا. حسنا. الضابط "س". كانت تتودد إليه. فقال "**تومي**":

– وكان هناك أيضًا عميل عدو يقطن في هذه المنطقة. رئيس منظمة كبرى. كان يعيش في كوخ في مكان ما على مقربة من المرفإ. أعتقد أن ذلك هو المكان، وكان يكتب الكثير من المادة الدعائية وكان يتحدث عن بعض الأمور ويروّج إلى أن أفضل فكرة لنا هي الانضمام إلى "**ألمانيا**" والتحالف مع الألمان وإلى أمور على هذه الشاكلة. قالت "**توبنس**":

– كل هذا مسبب للاضطراب؛ فجميع هذه الأمور والخطط والأوراق السرية والمؤامرات وأعمال التجسس– طالما أثارت اضطرابًا وتشوشًا. على أي حال، ربما بحثنا كله لم يكن في الأماكن الصحيحة. فقال "**تومي**":

– ليس بالضبط؛ فأنا لا أعتقد ذلك.

– ولماذا لا تعتقد ذلك؟

– لأنه لو كانت "**ماري جوردان**" قد تواجدت هنا كي تكتشف شيئًا ما ولو أنها قد توصلت إلى اكتشاف ذلك الشيء فربما عندما اكتشفوا – أعني الضابط "س" أو الآخرين – ذلك، فلابد أنه كان هناك أناس آخرون أيضًا في الموضوع.. عندما اكتشفوا أنها قد توصلت إلى اكتشاف ذلك الشيء.. قالت "**توبنس**" مقاطعة:

– الآن لا تؤدِّ بي إلى مزيد من التشوش. قولك أشياء كهذه يشوش تفكيري. أرجو أن تواصل حديثك.

– حسنًا إذًا. عندما اكتشفوا أنها قد توصلت إلى معرفة الكثير اضطروا إلى.. فقالت "**توبنس**":

– اضطروا إلى إسكاتها. فقال "**تومي**":

– تتحدثين بأسلوب "**فيليب أوبنهايم**" الذي عاش قبل عام ألف وتسعمائة وأربعة عشر يقينًا.

– حسنًا. اضطروا في جميع الأحوال إلى إسكات "**ماري**" قبل أن تتمكن من الإبلاغ عما كانت قد اكتشفته. فقال "**تومي**":

– لابد أن الأمر كان يتعلق بأكثر من هذا. ربما تكون قد توصلت إلى شيء ما مهم. أوراق أو وثائق مكتوبة. خطابات كانت سترسل أو ستسلم إلى شخص ما.

– نعم. أدرك ما تعنيه. علينا أن نبحث بين مجموعة مختلفة من الناس. لكن إذا كانت فردًا في المجموعة التي كان مقدرًا لها أن تموت بسبب خطإٍ اقترف بشأن الخضراوات ففي هذه الحالة لا أفهم تمامًا ما كان يعنيه "**ألكسندر**" بعبارته "واحد منا" هذه، ربما أن الشخص المعني ليس فردًا في عائلته. فقال "**تومي**":

– من الممكن أن الوضع قد كان على هذه الحال. فلم تكن هناك حاجة فعلية إلى أن يكون الفرد المعني من داخل المنزل. ومن السهولة بمكان قطف

أوراق شجيرات غير صالحة للاستهلاك الآدمي متشابهة في شكلها مع الخضراوات المعروفة وضمها معًا والمجيء بها إلى المطبخ، مع الحرص على ألا يكون هذا الكم من الأوراق الضارة بالصحة شديد الفتك، بحيث يصاب من يتناولون هذه الوجبة بوعكة مرضية بعدها، ويرسل في طلب الطبيب الذي يقرر بعد إجراء التحليل اللازم لعينة من الطعام أنه قد وقع خطأ في قطف الخضراوات ويستبعد أن يكون أحد قد فعل ذلك متعمداً. فقالت "**توبنس**" :

– ولكن من المحتمل في هذه الحالة أن يموت جميع من تناولوا هذه الوجبة أو أن يمرض جميع من تناولوا منها لكن لا يموتون. فقال "**تومي**" :

– ليس بالضرورة. لنفترض أنهم أرادوا لشخص معين – "**ماري جوردان**" – أن تموت وكانوا سوف يعطونها جرعة سم في مشروب قبل الغداء أو العشاء أو أيًا ما كان أو في قهوة أو أي شيء آخر بعد الوجبة .. "**ديجيتالين**" خالص أو "**أقونيطن**" أو أي من المواد السامة الأخرى التي تحتوي عليها أوراق قفاز الثعلب .. فقالت "**توبنس**" :

– "**الأقونيطن**" موجود في عشب قلنسوة الراهب على حد اعتقادي. فقال "**تومي**" :

– لا داعي إلى إظهار الذكاء الخارق. تكمن الفكرة في أن كل فرد يتلقى جرعة مخففة من خلال ما هو واضح أنه خطأ وبذلك يمرض الجميع بدرجة مخففة، ولكن فرداً واحداً يتوفى. ألا ترين أنه إذا مرض العدد الأكبر بعد وجبة العشاء أو الغداء في أحد الأيام وتم فحص الأمر واكتشاف ذلك الخطإ فإن الأمر يعتبر وارد الحدوث؟ كما تعلمين .. يتناول الناس أحيانًا أحد أنواع الفطريات بدلاً من المشروم (عيش الغراب) ويتناول الأطفال عنب الثعلب القاتل بطريق الخطإ؛ لأن ثماره تشبه التوت. مجرد خطإ ويمرض الناس ولكنهم لا يموتون عادة. يموت واحد منهم فقط، وهذا الشخص الذي يموت يفترض أنه شديد الحساسية لذلك الشيء أيًا كان، وبذلك توفيت هي ولم يتوفَّ أحد غيرها. ويعتبر الأمر راجعًا بحق إلى ذلك الخطإ ولا يهتمون بمزيد

من البحث أو الفحص كما لا يرتابون في وجود سبب آخر لحدوث الوفاة. فقالت "**توبنس**":

– ربما تكون قد مرضت بدرجة طفيفة مثل الآخرين ووضعت لها الجرعة السامة في قدح شاي الصباح الباكر في اليوم التالي.

– إنني لواثق يا "**توبنس**" بأن لديك الكثير من الأفكار. فقالت "**توبنس**":

– عن هذه الجزئية من الموضوع ... نعم. لكن ماذا عن الأمور الأخرى؟ أعني من وماذا ولماذا؟ من كان ذلك "الواحد منا" – "الواحد منهم" كما من الأفضل أن نصوغها الآن – الذي سنحت له الفرصة؟ هل هو شخص مقيم هنا، أصدقاء لآخرين ربما؟ أناس أحضروا خطابًا – مزوّرًا ربما – من صديق قال فيه: "أرجو الاهتمام بالسيد أو بالسيدة "**موراي ولسون**"" أو أي اسم آخر موجود هنا. "فهي شديدة الشوق إلى رؤية حديقتكم الجميلة" أو أي شيء من هذا القبيل. كان كل هذا سهل الحدوث جدًا.

– نعم. أرى ذلك. فقالت "**توبنس**":

– في هذه الحالة ربما يكون هناك شيء لا يزال موجودًا بالمنزل من شأنه أن يفسر ما قد حدث لي اليوم وأمس أيضًا.

– ما الذي حدث لك بالأمس يا "**توبنس**"؟

– انخلعت عجلات لعبة العربة والحصان التي كنت أهبط التل وأنا بداخلها منذ بضعة أيام؛ فتعرضت لسقطة عنيفة خلف شجرة لغز القرد تمامًا ولداخلها. وكدت أن .. أتعرض لحادث خطير. كان لذلك الأحمق العجوز "**إيزاك**" أن يتأكد من أن هذه اللعبة مكفولة الأمان. أكد لي أنه قد فحصها وأنها آمنة تمامًا قبل أن أبدأ.

– ولم تكن كذلك؟

– لا؛ لأنه أخبرني بعد ذلك بأنه يشك في أن أحدًا ما قد عبث بها محاولاً تفكيك عجلاتها أو شيئًا كهذا بحيث انخلعت. قال "**تومي**":

– "**توبنس**"، هل تعتقدين أن هذا هو ثاني أو ثالث شيء يحدث لنا هنا؟

تذكرين ذلك الشيء الآخر الذي كاد أن يسقط فوقي في حجرة الكتب؟

– هل تعني أن شخصا ما يريد التخلص منا؟ ولكن هذا سيعني .. فقال "**تومي**" :

– هذا يعني أنه لابد أن هناك شيئًا ما.. شيئًا ما موجود هنا .. بالمنزل.

نظر "**تومي**" إلى "**توبنس**" ونظرت "**توبنس**" إلى "**تومي**". كانت لحظة تفكير. فتحت "**توبنس**" فاها ثلاث مرات ولكنها تراجعت عن الحديث في كل مرة، مقطبة وهي مستغرقة في التفكير. وكان "**تومي**" هو من تكلم في نهاية الأمر:

– ماذا اعتقد؟ وما الذي قاله عن "**الحب الصادق**"؟ أعني "**إيزاك**".

– قال إنه أمر متوقع؛ لأن اللعبة بالغة القدم وصدئة تمامًا.

– ولكنه قال إن أحدًا كان يعبث بها؟ فقالت "**توبنس**" :

– نعم. قال ذلك تحديداً. وقال : "هؤلاء الصغار اعتادوا تجربتها. يستمتعون بجذب عجلاتها إلى خارج مواضعها. هذا ما يفعله هؤلاء القردة الصغار، ولا يعني هذا أنني رأيت أحداً منهم يفعل ذلك، ولكنني أفترض أنهم يحرصون على ألا أقبض عليهم وهم يفعلون ذلك. أتوقع أنهم ينتظرون حتى أنصرف من المكان". ثم أضافت "**توبنس**" قولها:

– سألته عما إذا كان يعتقد أن هذا مجرد .. مجرد أعمال عبث من جانبهم. فسأل "**تومي**" :

– وبماذا أجاب عن ذلك؟

– لم يعلم بماذا يجيب. فقال "**تومي**" :

– ربما كان ذلك ضربًا من العبث. فهذا أمر وارد.

– هل تحاول أن تقول إن القصد هو أن أواصل استخدام العربة فتخرج العجلات من مواضعها وتتحطم العربة؟ لكن هذا هراء يا "**تومي**". فقال "**تومي**" :

– يبدو كأنه هراء لكن لا تكون الأمور هراء في بعض الأحيان؛ فهذا متوقف

على مكان وكيفية وسبب حدوثها.

– لا أرى أي سبب ممكن. فقال "**تومي**":

– من الممكن التخمين .. بشأن الأمر الأكثر احتمالاً.

– ما الذي تعنيه بالأكثر احتمالاً؟

– أعني أنه ربما هناك من يريدنا أن نرحل عن هذا المكان.

– ولماذا يريدون ذلك؟ إذا كان هناك من يريد هذا المنزل لنفسه فمن الممكن أن يقدم لنا عرضاً عنه.

– نعم. هذا ممكن.

– حسنا. لقد تساءلت .. لم يرغب أحد غيرنا في هذا المنزل – على حد علمي. أعني أنه لم يكن هناك أحد غيرنا يعاين عندما حضرنا لمعاينته. بدا أنه قد عُرض بثمن منخفض لكن لا لسبب سوى أنه قديم جداً ويحتاج إلى كثير من الإصلاحات والتعديلات.

– لا أعتقد أنهم كانوا يريدون التخلص منا. ربما هذا راجع إلى كثرة بحثك واستفساراتك ونقل الأشياء من الكتب.

– هل ما تعنيه هو أنني أثير أموراً لا يريد طرف معين إثارتها؟ قال "**تومي**":

– شيء من هذا القبيل. أعني أن المقصود هو أن نشعر فجأة بأننا لا نحب الإقامة هنا؛ فنعرض المنزل للبيع ونرحل فيصبح كل شيء على خير ما يرام. يرضون بذلك. لا أعتقد أنهم...

– من تعني بقولك هذا؟ فقال "**تومي**":

– ليست لديَّ أدنى فكرة. ينبغي أن نعرف من هم فيما بعد. ينبغي أن نفصل ما بيننا وبينهم في أذهاننا.

– وماذا عن "**إيزاك**"؟

– ماذا تعنين بسؤالك هذا؟

– لا أعلم. أتساءل فقط عما إذا كان متورطاً في هذا.

– إنه رجل طاعن في السن. عاش هنا طويلاً ويعلم بعض الأمور. لو أن أحداً

أغراه بورقة من فئة الخمسة جنيهات فهل تظنين أنه يقبل أن يعبث بعجلات "**الحب الصادق**"؟ فقالت "**توبنس**" :

– لا . لا أظن ذلك. ليس لديه الذكاء الكافي لأن يفعل ذلك. فقال "**تومي**" :

– ما كان ليحتاج إلى ذكاء ليفعل ذلك. يحتاج إلى الذكاء فقط لتقبل ورقة النقد ونزع بعض المسامير الملولبة أو كسر قطعة خشب هنا أو هناك بحيث تتحطم العربة في المرة التالية التي تركبينها هبوطًا على التل. قالت "**توبنس**" :

– أرى أن ما تتصوره هذا هراء.

– حسنًا. وقد تصورت أنت عددًا من الأمور التي في عداد الهراء أيضًا. فقالت :

– لكنها اتسقت تمامًا. اتسقت مع الأمور التي سمعنا عنها. فقال "**تومي**" :

– حسنًا. نتيجة لتحرياتي أو أبحاثي، سميها كما تشائين، يبدو أننا لم نتوصل بعد إلى معرفة الأمور الصحيحة.

– تعني ما قلته أنا حالاً من أن هذا يقلب الأمور رأسًا على عقب. أعني أننا أصبحنا الآن نعرف أن "**ماري جوردان**" لم تكن عميلة للأعداء بل كانت عميلة لـ"**بريطانيا**" . وأنها تواجدت هنا من أجل غرض ما. وربما تكون قد أنجزت أهدافها. فقال "**تومي**" :

– والحال كذلك، لنوضح الأمور في ضوء هذه المعلومة الإضافية. كان الهدف من تواجدها هنا هو الكشف عن شيء ما. فقالت "**توبنس**" :

– ربما كان للكشف عن شيء ما بشأن الضابط "س" ، لابد أن نعرف اسمه، يبدو أنه فارغ من المعنى بحيث نظل نشير إليه بالضابط "س" طوال الوقت.

– لا بأس. لا بأس. ولكنك تعرفين مدى صعوبة هذه الأمور.

– وقد تمكنتْ من التوصل إلى ما تريد وقامتْ بالإبلاغ عنه، وربما فتح أحدهم الخطاب. فسأل "**تومي**" :

– أي خطاب؟

– الخطاب الذي كتبته إلى "مراسلها" أيًّا كان.

– نعم.

– هل تعتقد أنه كان والدها أو جدها أو شخصية من هذا القبيل؟ فقال "**تومي**":

– لا أظن ذلك. لا أعتقد أن هذا هو الأسلوب الذي يتم به التعامل. ربما اختارت اسم "**جوردان**" وحسب أو أنهم قد رأوا أنه اسم مناسب؛ لأنه لم يكن له ارتباط يذكر، وهذا ما لم يكن الحال لو أنها ألمانية جزئيًّا وربما جاءت من مهمة ما أخرى كانت تقوم بها لنا وليس لهم. ثم قال "**تومي**" مؤكداً:

– لنا وليس لهم، خارج البلاد. وبناء على ذلك أتت إلى هنا بأية صفة؟ فقالت "**توبنس**":

– لا أعلم. نحن مضطران إلى أن نبدأ من جديد بحثًا عن "الصفة" التي أتت بها. على أية حال أتت إلى هنا واكتشفت شيئًا ما وإما أنها أبلغته إلى شخصية معينة أو لم تبلغه. ما أعنيه هو أنها ربما لم تكتب خطابًا. ربما تكون قد توجهت إلى "**لندن**" وأبلغت شيئًا ما. التقت بشخص ما في متنزه "**ريجينت**" مثلاً. فقال "**تومي**":

– هذا هو البديل المعتاد عادة. أليس كذلك؟ أعني لقاء شخصية تابعة لسفارة معينة متواطئة معك وتلتقي معها في متنزه "**ريجينت**" و . . .

– تخبّئ أشياء بداخل تجويف شجرة في بعض الأحيان. هل تعتقد أنهم يفعلون هذا حقيقة؟ يبدو غير محتمل ألبتة، ولكنه أكثر شبهًا بعاشقين يتبادلان الخطابات العاطفية بهذه الطريقة.

– يمكنني القول إن ما وضعوه هناك كان مكتوبًا بما يوحي بأنه خطابات غرامية ولكنها مشفرة في الواقع . . فقالت "**توبنس**":

– فكرة رائعة وإن كنت أفترض أنهم . . . يا إلهي! مضى زمن طويل! والتوصل إلى أي شيء صعب جدًّا! وكلما زاد علمنا قلَّت الاستفادة منه، ولكننا لن نتوقف، أليس كذلك يا "**تومي**"؟ فقال "**تومي**" متنهداً:

– لا أعتقد أننا سنتوقف حاليًّا. سألته "**توبنس**" :

– هل تتمنى أن نتوقف؟

– تقريبًا. فعلى حد تقديري ... فقاطعته "**توبنس**" قائلة:

– مع ذلك لا أرى أنك قد تخليت عن المتابعة. ومن الصعب عليك أن تجعلني أتخلى عن هذه المتابعة أيضًا. ما أعنيه هو أنني سوف أواصل التفكير في الموضوع مما يمكن أن يسبب لي همومًا، ويجعلني أتخلى عن تناول غدائي وما إلى ذلك. فقال "**تومي**" :

– المهم هو .. هل تعتقدين .. نعلم بأسلوب ما ربما من أين بدأ الموضع. الجاسوسية. جاسوسية من جانب الأعداء استهدافًا لأمور محددة تم إنجاز بعضها، ولكننا لا نعلم من الذي كان متورطًا فيها. من وجهة نظر الأعداء. ما أعنيه أنه كان هنا أناس ربما بين قوات الأمن. أناس خونة. لكن كانت مهمتهم أن يظهروا كرجال دولة مخلصين. فقالت "**توبنس**" :

– نعم. سأتّبع هذا الرأي لأنه يبدو محتملاً جدًّا.

– وكانت مهمة "**ماري جوردان**" التواصل معهم.

– التواصل مع الضابط "س"؟

– نعم. أعتقد ذلك. أو مع أصدقاء الضابط "س"، والكشف عن أمور معينة، لكن يبدو أنه كان من الضرورة بمكان لها أن تأتي إلى هنا للحصول على ما تريد.

– هل تعتقد أنه كان لآل "**باركنسون**" – ها نحن نعود إلى آل "**باركنسون**" مرة أخرى قبل أن نعلم أين نكون – يد في كل ذلك؟ وأن آل "**باركنسون**" كانوا من الأعداء؟ فقال "**تومي**" :

– يبدو هذا الاحتمال بعيدًا تمامًا.

– لا أرى أدنى معنى لذلك إذن. فقال "**تومي**" :

– ربما كان للمنزل صلة بالموضوع.

– المنزل؟ لقد أتى أناس آخرون وعاشوا به بعد تلك الأحداث. أليس كذلك؟

– هذا صحيح. ولكنني لا أفترض أنهم كانوا من نوعيتك تماما يا "**توبنس**" .

– ماذا تعني بأنهم لم يكونوا من نوعيتي تماماً؟

– أعني أنهم لم يكونوا راغبين في الكتب القديمة ومتصفحين إياها ومكتشفين أموراً، ومتصرفين مثل نمس حقيقي في الواقع. أتوا إلى هنا وعاشوا فقط، وأتوقع أن يكونوا قد خصصوا حجرات الطابق الأعلى وحجرة الكتب للخدم ولم يدخلها أحد منهم. ربما هناك شيء تمت تخبئته بهذا المنزل، وربما تكون "**ماري جوردان**" هي التي خبأته. وتمت تخبئته في مكان ما استعداداً لتسليمه لفرد من المقرر أن يأتي في طلبه أو لأن تذهب هي بشخصها إلى "**لندن**" أو إلى مكان آخر – بذريعة ما – لتسليمه. كان تتعلل بالذهاب إلى طبيب الأسنان أو بزيارة صديقة قديمة. أمر غاية في السهولة. كان لديها شيء ما حصلت عليه أو عرفته مخبًأ في هذا المنزل.

– لا تعني أنه لا يزال مخبأ في هذا المنزل؟ فقال "**تومي**" :

– لا . لا أعتقد ذلك. لكن من يعلم؟ هناك من يخشى احتمال أن نعثر عليه أو أن نكون قد عثرنا عليه ويريدون إخراجنا من المنزل أو يريدون وضع أيديهم على ما يعتقدون أننا قد وجدناه – أيًا كان – والذي لم يمكنهم العثور عليه على الرغم من أنهم ربما يكونون قد بحثوا عنه في السنوات الماضية ثم ظنوا أنه قد تمت تخبئته في مكان ما خارج المنزل. قالت "**توبنس**" :

– هذا يضفي على الموضوع مزيداً من الإثارة أليس كذلك؟ فقال "**تومي**" :

– هذا مجرد رؤية. فقالت "**توبنس**" :

– لا تكن محبطًا. سوف أبحث خارج المنزل وبداخله.

– ماذا تعتزمين أن تفعلي، تحفرين حديقة المطبخ؟ فقالت "**توبنس**" :

– لا. الخزائن والدرك الأسفل ومثل هذه الأماكن. من يدري؟ قال "**تومي**" :

– آه يا "**توبنس**" . في الوقت الذي كنا نتطلع فيه إلى شيخوخة هادئة ممتعة. فقالت "**توبنس**" بنبرة مرحة :

– لا هدوء للمتقاعدين. هذا رأيي أيضاً.

– ماذا؟

– ينبغي أن أذهب وأتحدث مع متقاعدين من كبار السن. لم أفكر فيهم حتى الآن. فقال "**تومي**":

– اهتمي بنفسك بحق السماء. أرى أنني من الأفضل أن أُلازم المنزل وأراقبك، ولكنني مضطر إلى الذهاب إلى "**لندن**" غداً لإجراء مزيد من التحريات. فقالت "**توبنس**":

– وسأقوم أنا ببعض التحريات هنا.

بقية هذه الرواية تجدها في العدد رقم (82) بعنوان "**نسيج العنكبوت**".

*****

هذه هي أسماء وأرقام الروايات التي يمكنكم طلبها . . .

سارع في إرسال طلبك !

1	ابنة الفراعنة	23	جريمة على ضفاف النيل
2	جريمة الفندق	24	الجرائم الثلاث
3	أخطاء القضاء	25	جريمة في بيت الطالبات
4	أدلة الجريمة	26	جريمة في الجو
5	الإرث الدامي	27	جريمة في الصحراء
6	أصابع الاتهام	28	جريمة في قطار الشرق
7	امرأة خطرة	29	جريمة قتل
8	بيت الأحلام	30	الجريمة الكاملة
9	بواعث الجريمة	31	امرأة في مأزق
10	بيت الأهوال	32	الجريمة المستحيلة
11	التضحية الكبرى	33	الجريمة المعقَّدة
12	الضحية	34	الشاهدة الوحيدة
13	الجثة التي اختفت	35	جزيرة الموت
14	الجثة الثانية	36	جنون الانتقام
15	جثة في المكتبة	37	الحادث
16	الجريمة الأخيرة	38	الحب الذي قتل
17	جريمة أم	39	الرجل الرابع
18	جريمة فنية	40	ذات القناع الأسود
19	جريمة بلا شهود	41	ذات الوجهين
20	الجريمة تدق الباب	42	رجل بلا وجه
21	اللغز المثير	43	غانية باريس
22	جريمة عائلية	44	رصاصة في الرأس